الـوردة الـدم

بقلم الياس خليل زخريا

★

نبتت في حافة دارتنا عند فسحة البئر وردة .
لم يزرعها الزارع ولا سقاها الساقي ولا لمست ساقها يد العناية
برية ، وحشية ، تكاثرت فسائلها ، وتشابكت اغصانها ، وعلت بقساوة عودها كما يعلو غصن اللوز .
مفتحة ، زهرية ، يغمرها الورق الاخضر ، ويتمسحها الغبار النقي المتناثر ، ويأنس بها التراب المرتص
سمعت امس « حصاة » دقيقة تهمس في اذن حصاة :
« ويا جارتاه »
ان هذا التراب الاحمر اللين المتجرح على السواد يختمر من حولنا في سره العميق ، ويختلج في ذراته على حباته كما يختلج الهدب على الهدب والشهوة العائدة على الشهوة الهاربة ..
تنديه شفة الليل ، وتلفحه عين الشمس ، ويحتـرق ، ويترمد ، ويتنفس ، وتنساب فيه عصارات الزمن ، وتنتشي الخلايـا ، وتنمو الجـذور ، وتتيقظ الخواطر ، ويسيل العبق ، وتتحرك الخبيئـات ، وتنتفض الارض في روعة الصمت بحكايات التنفس، والـولادة .
ويا جارتاه
ما انقطع لهذه الوردة موسم ، ولا تغير مُناخ
لم يزرها الزائر الا ووجد فيها وردة .
تدور الفصول وهي ابدا في فصلها على النفح والارتواء .
ويتلاشى في القناعة همس التراب .
ويتجمع حولها اهل البيت .
اعطني يا اختاه هذا المقص !!
وقطعت وردة واحدة من وردها الزاهية
وجلست على حافة البئر قرب اللوزة العالية ، في شرقـي الهيكل ، اشتم من بين يدي العبير البري المتنفس .
ثمل في اواخر المطاف الطويل يشتم من شفتي كأسـه حرارة العمـر .
ويا لطيبها النقي !!
ليس في كأسه برودة الوقار ، ولا كثافة الخصب ، ولا ملل الانطـواء .
رائحة تراب ، ورائحة حصى ، ورائحة ندى ، ورائحة ليل بارد يمرغ صدره على سياج البيت ، من وراء الفجر، فتتمزق اضلاعه اللينة ، ويسيل منه على الشـوك مثل الدم الاحمر .
وتشرب وردتنا في الجبل من الطراوة في عروق النمو
وتكبر في النقاوة المنصهرة في خميرة العزم
وتمتد كما يمتد الغمام
وتورق كما يورق الرجاء
ويبدو فيها الشوك كما يبدو الشك
وتزهر في حينا كما يزهر الايمان
وسارعت بعض صبايا القرية يقطفن منها على الحذر قطفا.
كأن موسم الجبل ، موسم التراب البري لم يعد بموسم
... نزل الورد من الجبل الى المدينة ...
هنا حانوت الزنبق
هنا حانوت القرنفل
ومن كل صوب ، حوانيت الورد تزدحم على الارصفـة بالبنفسج وبالريحان والبخور ،
وشحوب تلاشت فيه النضارة
ووجوم يمحى فيه الزهو
ولون باهت ذابل تكسر على الضوء ،
وحوض الماء ، والمرايا المصقولة ، والجدار الملمع ، والسلال المكدسة
يشتري اهل المدينة الورد كما يشترون الخضار
وتتهادى به ، نحن ، في الجبـل كما نتهـادى بالمودة ونفائس العيد
بري ولكنه طيب سخي
فيه من عرف الديكة لونه
ومن جناح اليمام الفته
ومن حبل البئر رقته
ومن جبة الليل الصفاء
ومن عباءة الصبح الرواء
وفيه ، انه لا يعرف التصنع ، ولا التصنيف ، ولا الزخرفة، ولا الشحوب ، ولا هذه الاكاليل الجاهزة المعلقـة على مسامير الحائط التي دقتها يد المدينة في وجـه الاناقة ، ولا هذه الباقات ، المحزومات حزما ، في انتظار المواعيد العابـرة .
سألتها امس ، عن هذه الباقة مـن الزهـر المصنوع ، والاوراق المطلية في الاناء الفخار ، من غير شمس ، ولا ماء ، ولا هواء ، ولا نفس
سألتها عن هذه المدينة الصاخبة التي تعرض ازهارهـا وورودها في الابواب المفتحة ، صباح مساء ، فـلا يشتريها المشترون الا في زحمة الاعراس والمآتم ، كأنها اصبحت طقسا قائما من الطقوس ، وتقليـدا

الصفصافة

خضراء رف الطير في أفنانها ... وتمايلت تيها على قضبانها
وتطاولت نحو العلا بمهابة ... وغضارة الاوراق نطق لسانها
كم ظللت بالصيف حرانا وكم ... غنت طيور الايك في اغصانها
هي دوحة نبتت على نبط الميا ... ه يموج ريا الخصب في بستانها
كم من عيون قد رأت اوراقها ... تتجاوب النغمات في ميلانها
تتساقط الاغصان مثل ضفيرة ... مست ندي العشب في ارجحانها
من حولها الماء النمير مسقسقا ... الحانه وتر على عيدانها
هي نبتة قامت على هضبات ... وادي العين من غدرانها
في فيئها الحسناء راحت تنثني ... دلا وكان الغنج من عنوانها
وتاودت اعطافها وتراوحت ... في خطوها والحب في انسانها
وتبسمت عن لؤلؤ مفترة ... ورد على الشفتين ختم بيانها
ورنت الي بعينها وكأنها ... زهر يفوح الطيب من اردانها
سيري وغني واطربي وتطربي ... «روض الهنا» وقف على شبانها

عيسى ميخائيل سابا

موقتا من توافه الدنيا
ويا عجبا !!
ايشغلنا حديث الورد وعبير الورد ونحن في ملحمة الدم
انتباهى بواحدة برية ، عندنا ، في الجبل !! والتراب
يكاد ينجرف من تحت خطواتنا ، وتكاد الارض نفسها،
ببرها وبحرها ، تنزاح من بين اضلاعنا ومدى البصر
انلهو بالطيب ، واللون ، والشعاع ، واغاني الرقة ، وذؤابات
المناجاة ، واطياف الشوق ، ونحن عطاش ، جاعون،
ينهش صدورنا الخجل
اونقص قصة التراب ، وحكاية الحصى ، واخبار البئر
وصبايا القرية ،
ونحن قد اغتربت بنا البيوت ، واختنقت بنا الاجراس ،
واوحشت بنا المآذن ، وانهارت علينا القباب ،
وتحطمت الاعمدة ، واضعنا حتى حدود النظر في
البيادر الجنوبية ، ما بين المروج اليابسة ، وبطولات
صور وسيناء ، ولوحة الوصايا ، وصخرة الاسراء ،
ونهر المعمودية !!
ثم انترك الورد البري وحده على وحشة في الارض البرية
ويا لعمق الدم !!

كيف يتحول الدم في القوة والعزم الى ورد وطيب
الى هذا القرنفل الاحمر
الى هذا البنفسج الوديع
الى هذا الريحان الحي
الى هذا البخور المنتعش
الى هذا الزنبق الابيض الاحمر كغمائم تموز
الى هذا العشب الاخضر النابت في السفوح ، المتبعثر
على القمم .
والفارس الذي يعرف كيف يكون انفه معبرا الى نفسه
يعرف كيف يكون سيفه معبرا الى حقه ،
بين الورد والسيف نسب قديم
والذين يحبون الورد يحبون التراب، والذين يحبون التراب
يبنون عتبات البيت بألواح الصدور والواح
الجماجم وعزائم البطولات .
ويوم بنى جدودنا الجبل، حفروا في كلدارة بئرا، وزرعوا
حول كل بيت دالية ، وحبقة ، ووردة ، وتوتة ،
ومربط حصان ، وقنطرة تتكىء عليها من التعب
سواعد السماء .

الياس خليل زخريا

الجو متقلب ، والهواء بارد مشبـــع بالتـــراب ، والشمس مستكينـــة للسحاب تقع في اسره وتظل بـــين ذراعيه مدة ثم يطلقها وما تكــاد تحس بحريتها حتى تجد نفسها وقد عادت الى اسره من جديد . .

جو غريب رغم اننا في الربيع . . والعجوز يسير على قدميه واهنـــا ضعيفا يسحقه الجو المتقلب ويعذبه الهواء البارد وهو في سيره نحـــو محل ساعاتي عماد الدين يسير فـــي اصرار ، مكشرا عن انيابه التي اقتلعها الزمن وترك مكانها فجوات وفجوات . . يسير بوجهه المجعد وشعــــره الابيض وعيونه التي ذهب بريقها والتي تبدو رغم ذلـــك متشبعة بالاصرار مليئة بالتحدي ، ويدخل العجـوز المحل الصغير ويجد نفسه في ممره الضيق محشورا بين الزبائن ويحس بالملل والضجر ، يحس بالعـــذاب ، ويسمعه الجميع ــ الزبائن والاسطى صاحب المحل ــ يصرخ بصـــوت متحشرج يخرج من جوفه رفيعـــا غاضبا :

ــ الساعة يا أسطى ، الساعـــة فالصو .. انت غشتني ... انـــت غشاش .

وشمل الذهول الاسطى ، وتطلعت عيون الزبائن نحـــوه فــــي تساؤل ودهشة ، وصنع صاحب المحـــل ابتسامة زوقها بكل ما تعمله مـــن السوق وقال :

ــ بس اقعد شويه .. علشـــان نتفاهم ، طلباتك ستجاب .

ورد العجوز وقد تصاعد الدم الى رأسه واهتز عوده الجاف ولمعـــت عيونه بالغضب ، واهتز وهو يقول :

ــ بلاش كلام فارغ .. انت فاكر انني عيـــل صغير تضحك عليـــه ، الساعة بتاعتك مبتمشيش ، الساعة واقفة مبتتحركش ، حتموتني خدها!

ومد يده المرتعشة نحو صاحـــب المحل وقال بصوته الغاضب :

ــ اخلعها .. شيلها .. ارميهـــا .. حرام عليك ..

وفقد صاحب المحـــل شعوره فأمسك يده وضغط عليها بأصابعه القوية ، وصرخ العجوز واســـرع احد الزبائن وخلصه من يد الاسطى ، واهتز العجوز في عنف ثم ارتد على عقبيه في محاولة سريعة للخروج من المحل .. وادهش الزبائن توقفـــه الفجائي وتراجعه وهو يلوك الكلمات في فمه الخرب :

ــ مش معقول .. بنتي حياة .. بنتي الوحيدة ، اهلا بنتي ... اهـــلا حبيبتي ، ومين الامـــور دا .. لازم ابنك ، حفيدي ..

وانحنى على الطفل وقبله ، وفزع الطفل وصرخ بصوته البريء :



بقلم السيد ابراهيم

ــ ماما .. ماما .. العجوز ؟

وفقدت السيدة اعصابها ، شملها خوف وذهول ، وانتهرت العجـــوز قائلة :

ــ انت مجنون .. اكيد مجنون .. محل مجانين ..

وهرولت خارجة وهي تسحـــب طفلها الصغير .. وانهار العجوز على اقرب كرسي وظل يبكي بصوت عال، وبين الحين والحين يضرب كفـــا بكف ويقول :

ــ ربنا يسامحك يا حياة .. ربنا يسامحك يا بنتي ، ربنا يسامحك ، وكمان نسياني ، سيباني زي كـــل الناس ، يا خسارة العيش والملح .. دانا ابوكي .

وظل يبكي ..

وأثرت دموع العجوز في زبائـــن المحل .. وتحرك الاسطى نحـــوه في اشفاق ، وربت على كتفه في حنان وتطلع اليه الرجل بدهشة من خـــلال دموعه وقال :

ــ وانت كمان ربنا يسامحك .. انت غلبان مين عرفك حكايتي .. دي حكاية كبيرة ..

وفي صوت واحد قال الجميع :

ــ اتكلم يا عم .. قول لنا حكايتك؟

وأخرج العجوز منديلا متسخا مر به على وجهه ثم مسح انفه وابتسم ابتسامة صغيرة ثم قال :

ــ منها لله بنتي .. الله يسامحها .. مين يصدق اللي عملته .. تصوروا البنت حبت واحد ضابط وتجوزته .. هربت معاه ، وانا كنت طـــول عمري بحبها ، امها ماتت وسابتهـــا وانا كنت بالنسبة ليها ام واب طول اليوم معاها .. العبها واضاحكها .. ونسيت امها .. وبعدين كبرت وحبت واتجوزت من ورايا .. خافت مني آل ايه ؟.. انا حرفض جوازها .. حرفض سعادتها .. هو دا معقول ، هو فيه انسان يكره سعادة بنته .. ابدا والله عمري ما اكرهتها على شيء طول عمري بحبها .. المهم خانتني سرقت فلوسي وهربت .. وجعت وحفيت رجليه لحد الناس مسلفوني قرشين ، ورغم كدا والله مكرهتهاش كان نفسي اشوفها .. كنت اقعـــد طول اليوم افكر فيها .. في خيانتها لي ، ورغم كدا كان نفسي اشوفها ، والنهارده اتقابلنا .. الخاينة هربت انكرتني انا مجنون ؟.. ربنا يسامحها!

وهب واقفا ثم هرول خارجا لا يلوي على شيء .. وحار الجميع في أمره .. لقد ترك الساعة وجـــرى خارجا ولم تطل حيرتهم فقد سمـــع الاسطى والزبائن ضحكة عالية لعلعت



خارج المحل ودخل صاحب الضحكة وهو يقول :

– وكمان فيه دموع .. انا شفت الباشمهندس خارج من هنا قلت لازم عملها .. حكى حكايته وخلى دموعكم تجري ، متخافوش .. ما تصدقوش كلامه ..

وسأله الاسطى : ازاي ..

– الباشمهندس بيخرف رجل له ماضي .. راجل بيحب ..

وتعالت ضحكاته ثانية .. وسأله الاسطى في غضب :

– يا اخي بيحب ايه .. مش تفسر ..؟

وقال الرجل ضاحكا :

– انتظر حتى التقط انفاسي وسأتكلم .

خيم الصمت على المحل ، وفجأة تكلم الرجل :

– انه جارنا ، يظل باستمرار جالسا في القهوة المجاورة .. زارني يوما وقص علي حكايته وتأثرت جدا ، واقسم انني بكيت وقدمت له كل ما طلبه من مساعدات بسيطة وتعلقت به واحببته .. ذكرني بوالدي الذي توفي منذ زمن بعيد ولم اتمتع بحنانه .. وذات يوم .. سألت عنه فقيل لي أنه مريض واردت معرفة عنوانه وسألت عنه زبائن القهوة ، وقوبل سؤالي بالدهشة والتساؤل ، وكنت المح ابتسامة خفيفة يحاول محدثي ان يخفيها وهو يقول :

– الباشمهندس منعرفش له عنوان ..

واغادره واسأل غيره وهكذا دون ان اعثر على من يدلني على عنوانه ، واصابني يأس هائل ، ولكن في اللحظة التي بلغ فيها يأسي مداه وجدت الجرسون يأتي الى المحل ويقول لي وهو يناولني ورقة :

– عنوان الباشمهندس اهو ..

وامسكت الورقة وقرات العنوان ثم اغلقت المحل واوقفت سيارة اجرة واعطيت السائق العنوان وشقت العربة طريقها وسط زحام الشوارع الكبيرة وشيئا فشيئا غادرت الاحياء المزدحمة الى الشوارع الهادئة ، وفي الزمالك ، وفي احد الشوارع الهادئة تركت العربة وسرت بضع خطوات وعلى باب احد المنازل القديمة توقفت ثم ضغطت جرس الباب ورن رنينا متواصلا ، وفجأة رايت كلبا هائل الحجم ينظر الي شذرا من خلال شراعة الباب ، وتراجعت ولكن الصوت الذي اعرفه نهر الكلب بشدة فتراجع وتقدم العجوز ثم فتح الباب واستقبلني بابتسامة واسعة وترحيب حار ، لم يكن يبدو عليه المرض وسررت لذلك وصافحته بسعادة ثم قادني الى حجرة الصالون وجلست وجلس قبالتي واقعى كلبه الهائل بجواره .

وبعد التحيات سألته :

– لماذا لم نعد نراك في القهوة ؟

وابتسم العجوز ثم قال :

– هذه الايام .. لا استطيع .. انها فترة حداد بالنسبة لي .. لا أستطيع ان اخرج .. انني اظل اهيم على وجهي واعيش في الشوارع وفي المقاهي طوال العام ، اما هذه الايام فاني انقطع للذكرى فقط .

وسألته : الذكرى ؟

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال :

– نعم الذكرى .. ذكرى الخائنة .. ذكرى معبودتي . ذكرى حبي .. ذكرى فؤادي .. ذكرى الخائنة .

ولا ادري لماذا احسست بالخوف ، وتطلعت اليه والى الكلب وازعجتني نظرات الكلب .. كان ينظر نحوي وكأنما يحاول ان ينفذ الى اعماقي ويستجوبني .. بل وشك في عندما ظهر الخوف في عيوني وكأنه يقول لي محذرا :

لست صادقا في حبك لصاحبي .. انك بدأت تشك فيه .. انت مثلهم .

واحسست بقشعريرة تعتريني ، ولكني تمالكت نفسي واستمر محدثي يقول بأسلوب غريب وصوت شاب حتى خلته وقد عادت به الايام الى ايام الشباب .. كان يستعيد الماضي ، وتقمص شبابه وهو يحكي بأسلوب جديد تماما :

– زمن بعيد مضى وكنت شابا .. وكانت فتاة في ربيع العمر .. التقينا على الود وربط بين قلبينا الحب ، وانتظرت حتى تخرجنا من الجامعة واردت اتمام الزواج ولكن الفتاة كانت قد خانت ودي .. احبت غلاما وتزوجته ، وسافرت معه الى الخارج .. وضاقت الدنيا في وجهي ولم أستطع العيش في القاهرة ، فطلبت نقلي الى الاسكندرية واردت ان اغسل جراحي بين أمواج الثغر الجميل ، ومضت بي الايام وانقضت السنون ثم سلبتني الحياة شبابي .. سرقته دون ان ادري .. اصبحت عجوزا ولكنني لم انساها .. ولم انس حبي لها .. وفي اليوم الذي حددته لزواجنا استعيد الذكرى واحتفل بها .. احتفل بالخيانة وابصق على الخونة ..

وهب واقفا وتبعه الكلب مزمجرا .. واحسست بالعرق البارد وهو يبلل جسدي كله ، شملني خوف لا استطيع وصفه . ووجدتني اسأل نفسي :

– هل الرجل مجنون ؟.. ام يقول الحقيقة واهاجته الذكرى ؟..

ولم أستطع الاجابة على سؤالي بل لم ارد ان اتعرف على الحقيقة ... وعندما جلس الباشمهندس ثانية تركته يحكي كلما اراد دون ان اقاطعه ودون أن احاول ان يسلبني الخوف قدرتي على ان احتمل قصصا كثيرة عن الاسكندرية والقاهرة التي استقر بها اخيرا بعد احالته على المعاش .. ومر الوقت بطيئا ثقيلا واردت الاستئذان ولكنه طلب مني ان امكث معه قليلا .. ومر الوقت ابطأ من ذي قبل واخيرا افرج عني بعد ان هده التعب والحديث ..

حلم شاعر

تخذ الشعر في الحيـاة شعارا ... واسال الفـؤاد نـورا ونـارا
شاعر يمـلأ الريـاض غناء ... ويصيـد الفرائـد الابكـارا
يسكب العطر في الشفاه رحيقـا ... فتجـن الشفاه جذلـى سكارى
قلد الطير فـي الغنـاء غناه ... وافاض اللحون حتـى أثـارا
كـل ماتاه فـي الوجود شعورا ... وبنـان يدغـدغ القيثـارا
يزرع الحب فـي الطريق ويمشي ... رافع الرأس لا يهـاب عثـارا
ويـزق الجمـال اعـذب لحـن ... ويناغيـه جهـرة وسـرارا
ينهل الوحي من عيون الدراري ... ويوالي مـع النجـوم الحـوارا
وبنات القريض يرقصن حواليـه ... وينشـدن شعـره المختـارا
وهو الشاعر المطل علـى الدنيا ... بشعـر مخلـد لا يجـارى
قطـع مـن فـؤاد نضو كئيب ... نشرت روحـه الخطوب نثـارا
زعجته حوادث الدهـر حتـى ... خلتها فـي كيانـه منشـارا
ابعدته عمـن يحـب فاضحـى ... يتلوى مـن الاسـى منهـارا
وبـراه الحنـين للارز حتـى ... هـاج آلامـه الحنين فثـارا
وطوى سقطه على امـل الرجعى ... وغنى المنى وناجى الديـارا
انمـا كـل مـا تمنـاه حلـم ... وعلى الحلم كـم افاق الحيارى

لاباز ـ بوليفيا — جورج الكعدي

وخرجت وانا لا اكاد اصدق انني استطعت الخروج ، ووجدتني انظر نحو باب الشقة الذي اغلق خلفـي ثم اقول :

ـ الحمـد لله .. نفدنا مـن الباشمهندس .. توبة .

وسمعت البواب يضحك .. كـان خلفي تماما ، ووجدت الرجل الاسمر يقول :

ـ متخفش يا بيه . الباشمهندس ميخوفش .. راسه كلها حب .

ـ حب ..

نطقت بالكلمة غير مصدق ....

فقال البواب :

ـ ايـوه حب .. الباشمهندس بيحب .. انه دائما هكذا طول عمره يخترع قصصا وحواديث وحوادث يعتقد ان حبيبته خانته وابنته خانته .. انه يشعر بالملل .. كان اللـه في عونه طول عمره وحيد ، حياته لا تطاق .. لم يغادر القاهرة ابدا ... اعرفه منذ اكثر من ربع قرن .. لم يتزوج ابدا ، كان لا يعجبه العجب وفاته القطار وغرق في وحدتـه ، وعندما احيل الى المـعاش ازدادت حالته سوءا .. انه يختفي بالاسابيع وابحث عنه واعيده الى البيت ... واعتني به حتى يستقر حاله شيئـا ما ثم يخرج ولا يعود الا حطاما ... انه مسكين ..

وتركنـي البـواب وانصرف .. وتسمرت مكاني .. كـم عذبنـي العجوز بقصصه .. لم يستطـع اي انسان ان ينتزع الدموع من عينـي وانتزعها الباشمهندس .. بأكاذيبه ، يا له من ممثل قدير ووجدتني اضحك وتحركت قدماي وسرت في طريقي لا الوي على شيء .. ولم يعد العجوز لمقابلتي بعد ذلك ابدا .. اعتقد انه كان يراقبني والبواب يحدثني فلـم يعد لزيارتي ولم اعد انا للتفكير فـي اموره الى ان رأيته اليوم خارجا من المحل ودون ان ادري وجدتني اضحك و ... وقطع حديثه دخول العجوز وصوته الكسير وهو يقول مخاطبا الاسطى :

ـ معلهش يا ابني .. انا زي ابوك برضه .. لو كان ابني عاش كان بقى زيك .. هات فلـوس السباعـة . الحقيقة انا مش طايق الساعة فـي البيت ، دي بتفكرني بالزمن ، بتسرق الوقت ، بتسرق عمري .. حـرام مش عايز ساعات ..

ودون ان يدري صاحب المحل وجد يده تمتد بالنقود نحو العجوز الذي اختطفها وخرج مهرولا وهو يتحدث بكلام لم يفهمه احد ، وخيم الصمت من جديد على المحل .

واراد الرجل الضاحك ان يكمل حديثه ، ولكنه لم يجـد ما يقوله ، فنظر نحو صاحب المحل ووجـده يجفف دموعه بمنديله .. فسأله :

ـ اوتبكي ؟

فرد عليه بحزن قائلا :

ـ يجب ان نبكي جميعا ..

القاهرة — السيد ابراهيم

نبيه امين فارس - فؤاد جبور حداد غسان كنفاني

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الدكتور نبيه امين فارس

الشعار الذي تغنى به الدكتور فارس خلال السنوات التي عاشها الحكمة القائلة : « الرجل الصالح لا يحسب حسابا الا لامر واحد هو : هل يقوم بدور انسان طيب ام شرير ؟! »

ولد « نبيه » في مدينة الناصرة بفلسطين عام ١٩٠٦ ، ووالده المعلم المرحوم امين فارس الذي قضى نصف قرن استاذا للغة العربية وادابها في امهات مدارس فلسطين ، وتلقى « نبيه » دروسه الابتدائية والثانوية في مدرسة صهيون الانكليزية بالقدس (وكانت في طليعة المدارس الخاصة بفلسطين) وبعد ان نال شهادتها الثانوية انتسب الى الكلية الانكليزية بالقدس (كلية الشباب سابقا) ثم التحق بالجامعة الاميركية في بيروت وحصل على البكالوريوس في الاداب والتاريخ عام ١٩٢٨ بتفوق وتتلمذ على الدكتور اسد رستم (استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية عهدذاك) وعاد الى مدرسة صهيون بالقدس معلما فيها (١٩٢٨ ـ ١٩٣١) ثم قصد الولايات المتحدة عام ١٩٣١ والتحق بمدرسة اللاهوت في جامعة برنستون ثم حصل على الدكتوراه في اللغات الشرقية وادابها عام ١٩٣٥ واتيح له ان يتلقى العلم على ايدي فئة من كبار الباحثين وفي طليعتهم الدكتور فيليب حتي ، ودامت صحبته لجامعة برنستون ، طالبا ومدرسا واستاذا وقيما على المخطوطات العربية الموجودة في مكتبتها الى عام ١٩٤٢ وانتقل بعدها الى نيويورك فشغل منصب رئيس الشؤون العربية في مكتب اخبار الحرب الاميركي (قسم الاذاعة والمنشورات) واستمر في ادارته الى سنة ١٩٤٥ ، وفي هذه السنة جاء الى بيروت استاذا زائرا في الجامعة الاميركية وشغل كرسي التاريخ العربي فيها ورئيس دائرة التاريخ ومجلس الدراسات العالية وهيئة الدراسات العربية ، كما شارك في انشاء « مؤسسة الدراسات الفلسطينية » وخلال اجازاته الجامعية كان استاذا زائرا ، فحاضر ودرس في جامعات اميركية.

جاء نبيه (١) فارس الى الجامعة الاميركية في بيروت وقد اعد نفسه اعدادا صحيحا للمهمة التي نذر نفسه من اجلها ـ درس تاريخ العرب وتدريسه ـ وكان قد ثقف تقنية التنقيب ، وحذق اساليب البحث ، وتفقه في اصول الدراسة ، وتعرف الى مصادرها ، فأخذ نفسه بالتدريس والتعليم مفسرا موضحا معللا محللا . وتاريخ العرب، قديمه وحديثه ، لا تزال تغلب عليه الرواية ، ولا يزال بحاجة الى التفسير والتوضيح والتعليل والتحليل .

. وفي سبيل الغوص في نواحي التاريخ العربي والحضارة العربية نظم نبيه فارس خمسة عشر مؤتمرا للدراسات العربية عقدت في الجامعة الاميركية وأشرف عليها وحرر المجلدات الخمسة عشر التي نتجت عن الدراسات والابحاث المقدمة اليها . على ان نبيه فارس لم يكتب بالعربية فحسب ، ولم ينقل الى العربية فقط ، بل انه كتب بالانكليزية وترجم الى الانكليزية . فثمة عدد كبير من المقالات حول نواح من تاريخ العرب وحضارتهم يمكن الرجوع اليها في كثير من المجلات .

ثلاث وعشرون سنة قضاها نبيه فارس في الجامعة الاميركية. في هذه السنوات الطوال كان استاذا وباحثا وعضوا في مختلف لجانها ، والى هذا كان يحاضر هنا وهناك ويعنى بالنواحي التربوية من اعمال جمعية الشبان المسيحية وخاصة ما يتعلق منها باللاجئين من اهل فلسطين.

كان نبيه فارس مثال العالم الصحيح ، اتيح له ان يتدرب على ايدي جماعة من كبار الاساتذة في الجامعة الاميركية في بيروت وجامعة برنستون وجمع في الفترة الطويلة التي قضاها في الغرب « تقنية» مهنية كانت درعه الواقي من الشطط اذ انصرف الى كتابة بحث او القيام بدراسة واضاف الى ذلك من عنده صبرا جميلا ، فكنت تراه يلحق « الحقيقة » على صفرها كما تفتش النحلة عن الزهرة . فاذا تجمعت له الحقائق اقام منها البناء الذي يريد . وكان بناؤه متزنا متسقا لانه بالاضافة الى اتقان الصنعة كان يجيد التعبير ، بالعربية والانكليزية ، على السواء.

كان نبيه فارس مؤمنا ، لعل الذين كانوا يترددون على دور العبادة لم يشاهدوه هناك كثيرا ، لكن الرجل كان يرى صنع الله في الحياة بكاملها ، وكان كثير الشكر لله على ما وهبه .

كان نبيه فارس خصما عنيدا لمن يحيد عن الحق ، عندها كان يجرد منطقه وقلمه للدفاع عن حق هضم او شخص اسيء اليه ،وكان في مثل هذه الخصومة صريحا ، لا يداور ولا يماري ولا يضرب من الخلف ، وزملاؤه في الجامعة يعرفون ذلك عنه ، كما يعرفه الذين تصدى لنقدهم لانهم تنكبوا عن جادة الصواب في احكامهم .

كان نبيه فارس حاد المزاج عصبيه ، لكنها حدة لا تحمل الحقد قط ، فاذا هدأت ثورته وادرك خطأه اسرع الى الاعتذار ، وحتى الذين اساءوا اليه لم يحمل لهم حقدا .

كان نبيه فارس عربيا يؤمن بالعروبة الصافية ، بايمان قلب وعقل ، ولكنه لم يكن عروبة تقوم على فرض سلطان او نفوذ . والذين قرأوا له ما كتب حول هذا الموضوع او سمعوه يتكلم عنه يعرفون موقفه الصادق الصريح الواضح.

كان نبيه فارس يعيش محنة فلسطين عاطفة وعقلا ، وكانت القضية تأكل اعصابه ، ولعله واحد من القلة الذين اصابت « نكسة » حزيران ١٩٦٧ شغاف قلوبهم ، فاثرت في نفسه ، واستأثرت بتفكيره .

في كل هذا كله كان نبيه فارس معطاء كريما في الكبير والصغير من الامور ، وهذه الصفات هي التي جعلت منه وجها نبيلا !

وفجر الاربعاء الواقع في ١٤ شباط ١٩٦٨ توفى الله (نبيها) فجأة في بيروت وفي اليوم التالي دفن في مدينة بحمدون .

وبعد ان لحق الدكتور نبيه فارس بربه وقفت عائلته مكتبته الخاصة على طلاب واساتذة قسم اللغة العربية وادابها في الجامعة الاميركية ، ولقد قررت هذه الجامعة تنمية هذه المكتبة وجعلها مرجعا خاصا للدراسات الاسلامية والعربية لما تحتويه من مراجع قيمة في هذا الباب . وكذلك تعتزم الجامعة الاميركية صرف منحة سنوية باسم الدكتور نبيه فارس لطالب متفوق من الطلاب الفلسطينيين تخليدا لذكراه .

من آثاره القلمية : اثرى الدكتور نبيه فارس المكتبة العربية بطائفة من المؤلفات القيمة بالعربية والانكليزية وفي مقدمتها :

١ ـ فهرست وصف المخطوطات العربية في جامعة برنستون طبع عام ١٩٣٨

٢ ـ العاديات في جنوب الجزيرة العربية طبع عام ١٩٣٨
٣ ـ قصة الالفباء . طبع عام ١٩٤٠
٤ ـ الاكليل (الجزء الثامن) . طبع عام ١٩٤٠
٥ ـ الميراث العربي . طبع عام ١٩٤٤
٦ ـ النبالة عند العرب . طبع عام ١٩٤٥
٧ ـ العرب الاحياء . طبع عام ١٩٤٧
٨ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية (خمسة اجزاء) بالاشتراك مع منير بعلبكي (طبعت وصدرت خلال اعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠)
٩ ـ غيوم عربية . طبع عام ١٩٥٠
١٠ ـ كتاب الاصنام لابن الكلبي . طبع عام ١٩٥٢
١١ ـ من الزاوية العربية . طبع عام ١٩٥٣
١٢ ـ هذا العالم العربي . (بالاشتراك مع محمد توفيق) طبع عام ١٩٥٣
١٣ ـ العرب في التاريخ . طبع عام ١٩٥٤
١٤ ـ الهلال في أزمة . طبع عام ١٩٥٥
١٥ ـ دراسات عربية . طبع عام ١٩٥٧
١٦ ـ احياء علوم الدين للامام الغزالي (عدة اجزاء) طبع عام ١٩٦٢

وهكذا فقد كان الدكتور نبيه فارس طريقا مفتوحا ذا خطين : من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب .

وله بالاضافة الى ما ذكرنا من مؤلفاته عشرات المقالات الدراسية المنشورة في المجلات العلمية العربية والانكليزية المختلفة وفي الموسوعة البريطانية ، وجميع الذين زاملوا « نبيها » او درسوا عليه يشهدون له بسعة العلم ودقة البحث وصدق الوطنية .

٢ ـ الدكتور فؤاد جبور حداد

الحكمة التي آمن بها « فؤاد » واتخذها نبراسا له قول الامام الشيخ محمد عبده : « الارادة متى تمكنت في النفوس واصبحت ميراثا يتوارثه الابناء عن الاباء ذللت كل صعب ، وقهرت كل معتد اثيم مهما كان قويا !» .

تحدر «فؤاد » من أسرة الحداد التي هبطت يافا قادمةمن شفاعمرو (احدى قرى الجليل) ونشأ في يافا وتلقى دراسته الابتدائية في المدرسة الاميرية بحي النزهة ومنها انتقل الى « العامرية » الثانوية واحرز فيها صيتا ذائعا لمهارته بالقفز العالي والعدو السريع وحاز على كاس المدارس الاميرية في القفز العالي.

ومن « العامرية » انتقل الى مدرسة صهيون الانكليزية في بيت المقدس وهام باللغة العربية وادابها وحصل على الشهادة الثانوية بامتياز واجتاز امتحان المترك الفلسطيني . واول عمل زاوله الترجمة والاذاعة من « محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية » بيافا وعمل فيها ثلاث سنوات وكان يجد لذة في كتابة البرامج الادبية معولا فيما يكتب على امهات التاريخ والادب العربي وعلى مصادر الادب الغربي . ومن البرامج التي لاقت استحسان المستمعين « ابو دلامة » و « جابي الضرائب » و « البؤساء » و « القلادة » و « شوكت افندي » .

وفي عام ١٩٤٧ قصد « فؤاد » لندن للعمل في القسم العربي بالاذاعة البريطانية وحاول الافادة من وجوده بالعاصمة البريطانية فطفق يدرس نفسية الشعب البريطاني ويسبر غور عقليته ، واعجب بالمسرح البريطاني فكان يحضر معظم المسرحيات والتمثيليات الاذاعية . وطمعا بالمزيد من الثقافة في بريطانيا درج على حضور المحاضرات المسائية في جامعة لندن ونال شهادة « الانترميديات » في الادبين الانكليزي والعربي والمنطق .

وبعد خمس سنوات من العمل الشاق المتواصل في الاذاعة البريطانية التحق « فؤاد » بجامعة ادنبره باسكتلندا لدراسة طب الاسنان اذ اراد مهنة حرة توفر لهسعة العيش وتحرره من عبودية « الوظيفة »ولسان حاله يقول :

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا   عندي لكنت اذن من اسعد البشر
كفاف عيش يقيني ذل مسغبة   وخدمة العلم حتى ينقضي عمري !

ونتيجة لجده وسهره استطاع ان يحقق هذه الامنية ، وفي ذلك العهد كانت جامعة ادنبره في حاجة الى استاذ يعلم اللغة العربية في كلية الاداب فوقع الاختيار على « فؤاد » وكان يعلم ويتعلم في آن واحد ويكتب الاحاديث للاذاعة البريطانية .

وبعد ان نال شهادة في طب الاسنان عاد الى لندن وافتتح عيادة خاصة به .

العروة الوثقى : وفي لندن جمع العرق والدم والدمع بينه وبين الاستاذين حسن الكرمي الاديب اللغوي وسعيد العيسى الشاعر المعروف واسس ثلاثتهم جمعية ادبية اسموها « العروة الوثقى » هادفين الى ان تكون هذه الجمعية نواة لحركة أدبية عربية في بريطانيا على غرار « الرابطة القلمية » في نيويورك و « العصبة الاندلسية » في سان باولو ، واختاروا لها هذا الاسم تيمنا باسم اول جمعية عربية اسسها في باريس المصلح جمال الدين الافغاني والامام الشيخ محمد عبده ، وقال فيها الجواهري :

وكانت عروة وثقى تزجي   لمنقسمين حبا واتحادا
وناس لا الحضارة دنستهم   ولا طالوا مع الطمع امتدادا

ووضع لها الشاعر « سعيد العيسى » شعارا في البيتين التاليين:

اكبرت (عروتكم) يضم نطاقها   في دار غربتكم غريب الدار
هي معقل للضاد وهي منارة   اكرم بها من معقل ومنار !

والدكتور حداد مولع بالادب الاندلسي وله في هذا المجال ابحاث طريفة تتسم بالعمق ، تنشرها مجلة « الاديب » ويعتبر من ثقات تاريخ العرب في الاندلس .

من آثاره القلمية : وظهر اسم هذا الطبيب العربي على كتاب « تعليم الانكليزية بالراديو » وقد وضعه للاذاعة البريطانية في لندن .

نماذج من شعره : انشد المعتضد (والد المعتمد بن عباد) بعدما غزا رندة الاندلس واستولى عليها :

لقد حصلت يا رنده   فصرت لملكنا عقده

وعندما زار الدكتور فؤاد «رندة » هذه نسج على منوال ابيات المعتضد والمع الى الكرب الذيتبلوه فلسطين :

لقد جئناك يا رنده   فما احلاك من بلده
جنان الارض اندلس   وفيها أنت كالورده
تذكرنا ابن عباد   وابطالا آتوا بعده
تذكرنا ابن حفصون   وقوما ناصروا عهده
ففي واديك من قومي   رجالات ذوو نجده
لقد عاشوا لقد رقدوا   كرام العيش والرقده
لقد جئنا نحييهم   فقد طالت بنا المده
حماة الثغر تحنانا   فنحن اليوم في شده
اعادينا بارضينا   اعدوا أوفر العده
لهم في البغي انصار   ذوو ازناد مشتده
لهم ظفر وانياب   على الاهلين ممتده
فحتى صخرة الاقصى   بها اعلامهم عده
ونحن اليوم في بلوى   وفي اجواء مربده
فيا اجدادنا عفوا   لساني كاره سرده
عسى الرحمن يكفينا   بلاء نرتجي صده
اتاني بعد ذا صوت   يزيل الحزن والوحده

١ ـ مجلة « الاسبوع العربي » العدد ٤٥٥ ـ السنة التاسعة ـ بقلم الدكتور نقولا زياده .

به عطف وتحنان   به النبرات معتده
لقد دالت ممالكنا   وكانت حلوة رغده
فقل للعرب يا ولدي   بان النصر في الوحده
فما في الامر من لبس   وما في الامر من جده
وسرنا بعد ذا نطوي   شعاب الارض من (رنده)
وصوت الريح في اذني   يقول: « النصر في الوحده !»

وبعد نكسة العرب في الخامس من حزيران ١٩٦٧ قام الاستاذ موسى مزاوي (نزيل لندن) يدافع دفاعا مشكورا عن وجهة النظر العربية في الصحف البريطانية وفي الاذاعة والتلفزيون بلندن ، وقد ترك دفاعه المجيد هذا في نفوس العرب المقيمين في لندن صدى مستحبا، أراد ان يعبر عنه الدكتور حداد بالمقطوعة التالية :

سلم اللسان وبوركت شفتاكا   بالحق تنطق آه ما أسماكا
اطربتنا والحق يطرب سمعه   فاكثر وردد يا اخي مغناكا
ما كنت احسب ان صوتك مطربي   هل (معبد) في صوته حاكاكا ؟
بالامس قبلنا الحدود محبة   واليوم نرجو لو نقبل فاكا
فطلعت شمسا في سماء دجنة   كنت المزيل لا فكهم هتاكا
لا تنطلي اقوالهم وفعالهم   لو حاك دساس لهم ما حاكا
موسى تقبل من اخيك تحية   ملء الفؤاد المنتشي بثناكا
واضرب بسيف الحق كذب مقالهم   ابقاك ربي سالما ورعاكا !

وبينما كان المجاهد العربي المرحوم ادوارد عطيه يخطب على منبر جامعة اكسفورد مدافعا عن قضية فلسطين خر صريعا على ذلك المنبر فرثاه « فؤاد » بقوله :

بالشعر ارثيك ام بالدمع ابكيكا   الشعر عي ودمعي ليس يكفيكا
نايت تنشد حق العرب مغتربا   ما كان عن حقهم شيء ليثنيكا
لبيت لما دعا الداعي لنصرتهم   بالامس ، واليوم قد لبيت داعيكا
قد خضت حربا لها الميدان متسع   من ارض لندن حتى ارض امريكا
سلاحك الحق فيها ليس يثلمه   غدر الحليف ولا بهتان شانيكا
كنت المجاهد في الميدان مندفعا   في قلبك الحق والايمان في فيكا
كنت السفير أيا (ادوار) في بلد   عز النصير به والله حاميكا
أعليت للعرب عند الغرب غايتهم   واليوم نحن على الهامات نعليكا
تبكي اليراعة قلبا مؤمنا فطنا   نعاه للضاد والتاريخ ناعيكا
تبكي المنابر من كان الحبيب لها   وان تسل فدموع الصحب تنبيكا
كانت حياتك مثل العطر عابقة   وذي وفاتك من اسمى معانيكا!

ومن طرائف اخوانيات « العروة الوثقى » ان شاعرنا الحدادورفيقه الاستاذ حسن الكرمي ذهبا في احدى الامسيات لزيارة الشاعر سعيد العيسى للتهنئة بعيد ميلاده فقدم له « فؤاد » ديوان شعر كتب على صفحته :

انا لا اعرف كم جاوزت في العمر السنينا
انما اعرف ان قد كنت لي خدنا امينا
وكذاك الدهر يبني بيننا ودا مكينا

فرد عليه « سعيد » بنفس الروي والقافية :

دعك من تخمين عمري يا اخا ودي الامينا
انت ان تنظر الى وجهي تجد فيه غضونا
أسطرا قد زين الدهر بها مني الجبينا
دعك لا تقرأ بها الماضي ولا تحص السنينا
والى قلبي تعال انظر تجد حبا دفينا
فانا في السن ما جاوزت حد الاربعينا
غير اني جزت في حبك اعواما مئينا

وفي ذات يوم كان « سعيد » مريضا فعاده « فؤاد » و «الكرمي» وعقد ثلاثتهم جلستهم الادبية حول سريره ، وحمل اليه الدكتور حداد ديوانا اخر من الشعر ليقرأه في سريره ووشحه بهذين البيتين :

وهل اهديك شعرا يا « سعيد »   وانت اليوم للشعر عميد
ولكن هذه خلجات ود   ومن جدواك ان جدنا نجود

فأجابه « سعيد » على البديهة :

قواف تلك أم در نضيد   وسجعة بلبل ذي أم قصيد ؟!
وهذا الشعر اين السحر منه   اذا التبست على المرء الحدود
قلائد طوقت عنقي وأني   وان ثقلت علي ، بها « سعيد»
عهدتك يا « فؤاد » طبيب جسم   بكفك يكمن البرء الاكيد
ومبضعك الحياة بشفرتيه   يسير على الصراط فلا يحيد
اذا غمزته كفك في حنان   فاقصى سيره الخطو الوئيد
تعود به الحياة لذي موات   وعهدي ان مضت ليست تعود
وما أنت المريد له حياة   ولكن الاله هو المريد !
خشيت الله فيما ترتجيه   فزادك نعمة فيمن يزيد
سبيلك في الحياة سبيل صدق   ورأيك في الامور هو السديد
جمعت رئاستين على صعيد   وفضلك ليس يجمعه صعيد
جمعت الى التقى ادبا وعلما   وها انذا ابايع يا عميد !

وفي احد الاسابيع شغل «فؤادا » شاغل عن حضور الجلسة الادبية فبعث اليه « سعيد » بالابيات التالية :

يا سامح الله خلا زان نادينا   بالانس ثم نأى عنا وخلانا
فأين أنت أخا الود الصحيح ، الا   والله نايك عنا امس اشجانا
شغلت عنا بظبي كنت سلوته   وانت ذكرك ، طول اليوم، سلوانا

فارسل اليه « فؤاد » معارضا :

يا عاتبا وله في القلب منزلة   باتت لنا في سواد العين انسانا
عاتبتني لفراق عنك اكرهه   وهل اطيق عن الاخوان سلوانا؟
لو كنت تنصف لم تعتب على دنف   قد ذاق بالامس مر العيش الوانا
نأي الاحبة مر في مذاقته   فاصفح عن الخل واغفر منه ماكانا!

وفي زورة قام بها « فؤاد » الى بيروت سأله « سعيد » ان يأتيه بنسخة من ديوان « الاعاصير » لشاعر القومية العربية « الشاعر القروي » فعاد الطبيب الشاعر بنسخة الديوان موشحة بالبيتين التاليين :

هذي «الاعاصير» اهديها لذي أدب   حلو الشمائل ملء السمع والبصر
ان قال شعرا فذي الاوزان طائعة   او رام نثرا فكالياقوت والدرر

فرد عليه « سعيد» بقوله :

يا «للاعاصير» قد باتت تسامرني   وهل سمعت باعصار اخي سمر ؟
فيها من الفكر أثمار مطيبة   يا حبذا نفحات الفكر من ثمر!
اهديتنيها بلا من يكدرها   وأحسن الجود ما يأتي بلا كدر!

زار لندن مرة يعقوب حداد شقيق الدكتور فؤاد وعرف خلال زيارته القصيرة ان « سعيدا » يحب فاكهة (المانكا) النادرة الوجود في لندن ، وبعد عودته الى الكويت ارسل سلا بالطائرة من هذه الفاكهة اللذيذة هدية لـ « سعيد » فبعث اليه بالشكر التالي :

« يعقوب » من لي بالقريض اصوغ منه حلى الثناء
تلك الهدية جل مهديها ويكفيك الدعاء
من اخوة لك في ديار الغرب محرومي الرجاء
فكهتهم بالطيب المعسول مجلو الرواء
سال اللعاب له اشتهاء عندما رفع الغطاء
لولاه ما احلولى لنا في لندن يوما بقاء !
زدنا نزدك من الثناء اخا المروءة والوفاء !

واملى الوفاء على « فؤاد » ابياتا بعث بها الى شقيقه « يعقوب » في الكويت :

اخجلتنا والله يا يعقو   ب في ذاك العطاء
انت الحبيب الى القلوب   وانت للعين الضياء
ان الهدايا رمز مهديها   ورمزكم الوفاء
منك الحلاوة والطلاوة   واللطافة والصفاء

وسمعت السيدة « ام يعقوب » بقصة المانكا فسارعت الى ارسال سل اخر من هذه الفاكهة النادرة في لندن ، فابتهجت قلوب الاخوان

بهذه الهدية وبادر « سعيد » الى شكر السيدة « ام يعقوب » بهذه الابيات :

قل للعريقة في المعالي « أم اليعاقيب » الغوالي
من كل لؤلؤة عدمت لها نظيرا في اللآلي
انا من حلاوة حبة الما نكا لساني اليوم حالي !
ويظل طول العام ... حتى موسم للمانكا تالي

وبادر « فؤاد » الى تشطير ابيات « سعيد » فقال :

« قل للعريقة في المعالي » ان الرفاق بخير حال
قد كلفوني شكرها « أم اليعاقيب » الغوالي
« من كل لؤلؤة عدمت » نظيرها فاسمع مقالي
ان الرجال لآلىء « ما مثلها بين اللآلي »
« انا من حلاوة حبة » للمانكا لا ادري بحالي
علي ازاد اذا شكرت « فها لساني اليوم حالي !»
« ويظل طول العام » يذكر فضل توزيع النوال
ويظل يرجو آملا « في موسم للمانكا تالي »!

٣ ـ غسان كنفاني

بارح فلسطين مكرها وفي قلبه جمرات حامية من الظلم والطغيان ، وظل يردد مع « طاغور » شاعر المحبة والانسانية : « ان بلادي عندما تثور على الظلم ، وتثور في وجه كل ظالم فهي تثور للحق ! » .

ولد « غسان » في (عكا) قاهرة الغزاة والفاتحين عام ١٩٣٦ ودرس في كلية الفرير بيافا وحملته النكبة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) على اللجوء الى لبنان ولما يكمل دراسته الابتدائية ثم لحق بافراد اسرته في دمشق وعاش عيشة قاسية لكنه اقبل على الدراسة ليلا وبعد ان نال شهادة الدراسة الثانوية بارح دمشق الى الكويت عام ١٩٥٥ وعمل معلما هناك مدة ست سنوات وواظب خلالها على الدراسة الجامعية بالانتساب الى كلية الاداب بجامعة دمشق واعد دراسة لنيل الشهادة الجامعية : « العرق والدين في الادب الصهيوني » ثم عاد الى بيروت ليعمل محررا في صحيفة « الحرية » الاسبوعية وما لبث ان انضم الى صحيفة « المحرر » اليومية البيروتية رئيسا لتحريرها .

من آثاره القلمية : بدأ « غسان » كتابة القصة القصيرة في سن مبكرة وصور في قصصه فلسطين موطنه الاول ومأساة شعبها . واول قصة نشرها عام ١٩٥٦ في مجلة « الاداب » البيروتية ، ومن آثاره القلمية :

١ ـ موت السرير رقم ١٢ (مجموعة قصص قصيرة) طبع عام ١٩٦٢
٢ ـ رجال في الشمس (رواية) طبع عام ١٩٦٣
٣ ـ ارض البرتقال الحزين (مجموعة قصص قصيرة) طبع عام ١٩٦٣
٤ ـ الباب (مسرحية) طبع عام ١٩٦٤
٥ ـ عالم ليس لنا (مسرحية) طبع عام ١٩٦٥
٦ ـ ادب المقاومة في فلسطين المحتلة . (دراسة عن ادب الشعراء العرب في الارض المحتلة من فلسطين بعد نكبة عام ١٩٤٨) طبع عام ١٩٦٦
٧ ـ ما تبقى لكم (قصة) طبع عام ١٩٦٦
٨ ـ العرق والدين في الادب الصهيوني (دراسة في الصهيونية الادبية من العهد القديم الى عصرنا الحاضر)
٩ ـ سقوط الجليل (رواية مطولة) .

وفي خريف عام ١٩٦٦ منحت « جمعية اصدقاء الكتاب » في بيروت « غسانا » جائزتها المالية تقديرا لقصته « ما تبقى لكم » .

وفي ربيع ١٩٦٧ ظهرت في منشورات جامعة اوكسفورد بلندن مجموعة قصص عربية ترجمها الى الانكليزية المستشرق البريطاني دنيس جونسون ديفيز وفي عدادها قصة بقلم « غسان » .

لقد تميز « غسان » بتفكيره الثوري ونضاله في سبيل وطنه المغصوب وتجسيد مأساته بقصص صور فيها محنه وتشرده وصموده . وهو مفكر مناضل وفنان على درجة عالية من الوعي بوسائله الفنية .

نموذج من نثره : « لا شك انك تقول يا « رياض » انك تقول الآن انني قد جننت ، فهذه ثاني رسالة اكتبها اليك في يوم واحد ، ولكنني في الواقع اكتب اليك هذه الرسالة لاوضح لك امرا ، لقد اكتشفت انه محض جنون ان اكتب اليك واقول : « ابحث معي حيث انت » عن رجل طويل جدا ، صلب جدا ، لا اعرف اسمه ، ولكنه يرتدي بدلة كاكية عتيقة ، ويلوح لاول وهلة كانه مجنون !

ماذا يمكن ان تفهم من هذا كله ؟ لا شيء طبعا ، فالمرء يصادف في اليوم الواحد ، اذا ما سار في الطريق ، مئة رجل يحملون هذه الصفات ، فاي واحد منهم تراني أقصد ؟

انني على يقين من انك ستكتشفه بنفسك ، فهو شيء آخر ، متميز ... كيف ؟ لا استطيع ان اقول لك فانا نفسي لا اعرف ولكن يخيل الي الآن انني حين شهدته لاول مرة كان محاطا بما يشبه الضوء ، نعم ... كان محاطا بشيء يشبه الغبار المضيء ، واعترف لك انني لم اتأكد من ذلك تماما حين استوقفني لحظة واحدة في الطريق ، الا انني أكاد اكون متيقنا الآن ، ان ذلك الغبار المضيء الذي كان بحوط جسده الضخم هو الذي رسخ صورته في ذهني ، والا كيف تفسر انني ما زلت اذكره ، وما زال يلح علي ، من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الانسان في الطريق كل يوم ثم يذوبون من رأسه وينعدمون ؟

ورغم ذلك فانا اعرف ، هذه اللحظة ، انك ما زلت تعتقد انني شبه مجنون ، فحتى الآن لم يتفصح أي شيء ، وما زلنا حيث كنا في الرسالة الاولى : ابحث معي حيث انت ، عن رجل طويل جدا ، صلب جدا ، لا اعرف اسمه ، ولكنه يرتدي بدلة كاكية عتيقة ويبدو لاول وهلة كانه مجنون !

كل الذي اضفته لهذه الصفات تلك الصفة المعقدة الجديدة : انه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء !

الحق معك ولكنني اكتب اليك هذه الرسالة الثانية في يوم واحد لتعرف القصة بكاملها ، ذلك انني رأيت انه صار من حقك ، وقد طلبت منك مشاركتي في البحث عنه ، ومعرفة ما اعرفه !

لست اذكر بالضبط متى رأيته لاول مرة ، ولكني اذكر تماما كيف رأيته : مثل انسان فقد شيئا وسار محنيا بعض الشيء ، بكفين مفتوحين ، وعينين تنقبان في وجوه الناس كانهما محراثان عتيقان . لقد بدا لاول وهلة وكانه مجنون ، وحين مر بي نسيته ولم اذكره الا حين رأيته مرة ثانية : اقتلعتني عيناه فجأة واحسست نفسي اطوف فوق موجة تستعصي على الرؤية ، ولست ادري الآن ما اذا كنت انا الذي ذهبت اليه مسوقا بذلك النداء العميق المنبعث من عينيه كتيار لا يقاوم أو انه هو الذي جاء الي ! وعلى أي حال فقد وضع كفه الندي على كتفي وقال :

ـ هل رأيتها ؟
ـ رأيت ماذا ؟
ـ العروس !

وطبعا تيقنت في هذه اللحظة انه مجنون ، وان ما انتابني امام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي انسان يجد نفسه هدفا لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول ، لذلك آثرت الهرب فقلت له :

ـ كلا ... لم ار العروس .

وعندما سقطت كفه تلقائيا الى جنبه واستدار سمعته يقول :

ـ كلكم تقولون هذا ، منذ عشر سنوات !

وحين ابتلعه الزحام شعرت بان جسده الضخم كان محاطا بذلك

الشيء الذي يشبه الغبار المضيء ، كما رسمه فنانو عصر النهضة ، على بطاقات الاعياد التي كنا نتلقاها معا .

وعبثا حاولت اللحاق به : ان مثل هذه الامور لا تحدث الا كلمح البصر ، لقد نقبت الشارع صعودا ونزولا ، قابلت مئات من الرجال يشبهونه ، ولكنه هو نفسه كان قد اختفى !

ابحث عنه ، وشاركني في البحث ... اعرف انك تبعد عنا اكثر من الف ميل ، ولكن ما الذي يمنع ذلك الرجل من ان يسير محاطا بذلك الضوء المجهول ، اكثر من الف ميل وهو يبحث عن العروس ؟

قبل ان اسألك سألت غيرك ، ولم الجأ اليك الا لانني ، منذ رأيته ، لجأت الى كل من أعرفه ، استوقفت كل من تربطني به ايـة آصرة ، متسائلا عنه ، وافضى بي الامر الى ابعد من ذلك !

ذات ليلة قلت لنفسي : اذا كان الرجل قد دأب على سؤال الناس عن العروس منذ عشر سنوات ، كما قال ، فان الشيء المؤكد تماما ان كثيرا من اولئك الناس الذين سألهم ، ينتابهم الآن ما ينتابني ! وذات يوم كنت اسير في الطريق حين التقت عيناي بعيني عابر لا اعرفه ، ودون ان اعرف ما الذي انوي عمله مضيت الى الرجل فاستوقفته ووضعت يدي على كتفه وسألته : « هل رأيت العروس ؟ » .

سمني مجنونا ... ولكن هذا ما حصل ، وقد استطعت عن هذا الطريق ان اعرف الكثير عن الرجل وعن « العروس » الضائعة ، الا انني ما زلت غير قادر على التخلص من تلك القوة المجهولة التي تدفعني نحو عيون العابرين لاسالهم عن « العروس » الضائعة !

الآن دارت الدورة ، او انني ادرتها ، لست ادري ، ولا بد من العودة الى نقطة البدء ، الى ذلك الرجل المحاط بما يشبه النور ، والذي من شفتيه وعينيه وتحت كفه الثقيل ، سمعت ذلك السؤال لاول مرة في حياتي ، نعم ، يا « رياض » ، لا بد لي من رؤيته ... فلدي اخبار جديدة عن العروس !

كان من قرية « شعب » شاب لم يكن قد ضيع شيئا بعد ، ولكنه لم يكن عند ذاك قد وجد أي شيء ايضا .

لا بد ان قصته قد بدأت في يوم من ايام حزيران ١٩٤٨ ، كان القتال الدموي مستمرا بدون انقطاع طوال اكثر من ستة شهور ، وكان هو ـ وانا ما زلت اجهل اسمه ـ سيد الذين يندفعون الى القتال ، هجوما كان او نجدة او دفاعا ، الا انه كان يشترط ان يعرف موعد العمل قبل ان يعيره سلاحا ، بندقية خديوية ، او انكليزية ، او حتى قنبلة يدوية !

وكانت الامور ، على هذه الوتيرة ، مقبولة لدى كافة الاطراف ، فغالبا ما كان يصطحب ، الى الرجل الذي ينوي ان يستعير منه سلاحا ، يتعهد امامه بان يعيد السلاح الى صاحبه اذا ما استشهد صاحبنا اثناء المعركة . كان حريصا على ان يتعامل معاملة مصرفية محترمة ، رغم انه لم يشهد في حياته مصرفا ، وهكذا فانه لم يواجه، طول تلك الشهور الستة مشكلة حقيقية في هذا المجال ، ولذلك لم يفكر بالحصول على سلاح خاص ، وربما امتنع عن التفكير بالحصول على ذلك السلاح الخاص بسبب عجزه عن شراء سلاح !

لم اعرف بعد من الذي زرع في رأسه ، في احد تلك الايام الاولى من حزيران ، أن عليه الحصول على سلاح ، وكان هذا الراي سليما تماما ، فقد تركز القتال بصورة جدية في الجليل ، والقى العدو بثقله هناك ، وبدأت زحوف اللاجئين تتدفق الى التلال شمالا ، وبدا كل شيء وكأنه يقف على الحافة .

لا شك في انه كان أصلب من ان يتردد كثيرا ، فقبل ان ينتهي الاسبوع الاول من ذلك الشهر كان قد عقد عزمه بصورة ليس بالوسع زحزحتها ، لقد سلم سلاحه في معركة لم اهتد الى اسمها بعد ، لاحد رفاقه ومضى يزحف تحت غيوم راعدة من النار ، كان على يقين من ان بعض جنود العدو في خطوطهم الامامية قد قتلوا ، ولو انه تريث الى نهاية المعركة لفقد الفرصة ، اذ كان يعرف انهم يسحبون جنودهم بالحبال بعد انتهاء القتال .

واستطاع الوصول الى الخنادق المحروقة ، كانت العتمة ثقيلة ، ولكنه نزل في حفرة وباسنانه فك يد القتيل عن بندقيته وعاد بها الى رفاقه !

وسرى النبأ في سائر القرى سريان النار ، ليس لانها كانت الحادثة الاولى من نوعها ولكن لان البندقية التي غنمها كانت بندقية نادرة !

لن اطيل عليك كثيرا ، لقد استدعي في اليوم التالي الى مركز القيادة ، ضاربا في الوعر ، انتظر الآن ، تعال غدا ، ولكن الاحداث في ذلك الشهر ، كما تذكر ، لم تكن لتنتظر !

وفي يوم واحد انتابه حدثان : في الصباح قيل له ان الضابط قد نقل قيادته الى الشمال حيث لا يعرف احد ، وفي المساء تلقت « شعب » الضربة الاولى ، اذ حرقت قنابل المورتر بيوتها الطينية ، وحرقت اغراس الزيتون في لحظة كلمح البصر !

من الذي سيعيره بندقية في ذلك الطوفان الذي لا تنفع فيه الا البندقية ؟ هي وحدها التي كانت تستطيع ان تحمل الانسان عبر ذلك الموج الى شاطىء السلامة او الى شاطىء موت شريف ، ولذلك لم يكن امامه في ذلك الطوفان العارم الا الجنون !

ولكنه لم يختر الجنون ولم يختر الفرار ... وكان الموت هو الذي تبقى له ، ولكن حتى الموت خسره ، هو الذي صرف ايام الحرب مناضلا في اول صف ، بسلاح معار ، بين اسنان موت حقيقي ، جلس على حجر في وسط الساحة ب « شعب » ينظر الى البيوت تحترق ، والى الرجال يموتون والى اهله ينسربون مع من انسرب تحت ظلمة ذلك الليل ، الى حيث لم يعرف ، ولا يعرف حتى الآن . وحين احتلوا « شعب » شاهدوه ، وقد حسبوه كما حسبت انا ، مجنونا فضربوه باعقاب البنادق كي يغذ المسير في الوعر ، الى الشمال .

ومضى يبحث عن بندقيته التي كانت محشوة بالرصاص ، لكنه لم يطلق منها رصاصة واحدة ! قليلون هم الذين يعرفون ما حدث في « شعب » ومن الضروري ان تعرف ما وقع هناك لتدرك حقيقة القصة. لقد مضى هو صعودا في قيظ لا مثيل له ، الى « البروة » ومنها الى « مجد الكروم » ف « البعنة » ف « دير الاسد » ف « كسرة » ف « كفر سميع » متعقبا اخبار بندقيته ، وحين بلغ « ترشيحا » تناهت اليه اخبار جديدة من « شعب » هي ان الاربعين مناضلا الذين بقوا من رجال « شعب » عرضوا انفسهم على قيادة جيش الانقاذ في الشمال ، وحين علموا بان الزحف لن يمر في « شعب » عادوا من حيث أتوا ، وفي ليلة واحدة انقضوا على قريتهم من جديد واستردوها، وتعقبوا العدو الى قرب مفرق « الدامون » ودفعوا الثمن عشرة رجال!

لقد حدث هذا يا « رياض » في بقعة محفوفة بالعدو من كل جانب ، واستطاع الثلاثون رجلا ان يبقوا وراء جدران قريتهم المهدمة يردون الهجمات المتكررة ليلا نهارا ، ولكنه وهو في « ترشيحا » كان يشم بندقيته قريبة منه كانها في متناول يده ، واعتقد لو انه تريث قليلا لاستطاع استردادها وعاد بها الى « شعب » .

وفي اليوم التالي قيل له ان بندقية تشيكية جديدة شوهدت مع رجل عجوز في قرية تقع على بعد ساعتين من « ترشيحا » فذهب اليها ليلا وهناك قيل له ، وهو يكاد يفقد وعيه ، ان مقاتلي « شعب » الخمسة والعشرين قد انحدروا اليها تلك الليلة بالذات وقاتلوا ببنادقهم وسكاكينهم حتى الصباح حتى استردوا ، مرة اخرى ، قريتهم الممزعة وتمركزوا وراء الركام على مداخلها وفقدوا ثلاثة رجال .

وقيل له ان العجوز الذي شوهد يحمل البندقية مضى ليلا الى الجنوب ليلتحق بالمقاتلين الذين بدأوا يتجمعون الى الجنوب من

اسطورة الذهب

القاها الشاعر في مهرجان الشعر بزحلة ، لبنان

زكي قنصل

* * *

هذي سماء الحمى، فاسبح مع الشهب ... وهذه ارضه فاسرح ولا تهب
لا لست في حلم تخشى عواقبه ... بل انت في مهرجان الشعر والادب
في عصبة نجب يرقى بهم نسب ... لعصبة ملء تاريخ العلى نجب
يا قلب كم هزنا وجد وارقنا ... هم وقلبنا شوق على لهب
كم اصطنعنا من الاحلام اجنحة ... ثم افترشنا بساط الرمل والعشب
ما في رجوعك للفردوس من عجب ... ان اغترابك عنه منتهى العجب
فراق اهلك جرح ليس يلأمه ... ما في البرية من جاه ومن نشب

هل ضمك الليل الا شاكيا وصبا ... ترويه بالدمع او تطويه بالدأب
ويح المهاجر يسعى في مناكبها ... يقظان من وجل ، سهران من نصب
اذا انتمى القوم ألوى وجهه خجلا ... انى يعز شريد ضائع النسب ؟
لا رجله في بلاد الناس راسية ... ولا بموطنه موصولة السبب

ترشيحا بانتظار هجوم حاسم .

وبدون أي تردد كر عائدا الى ترشيحا ، ولكن اخبار « شعب » سبقته الى « ترشيحا » حيث لم يستطع ان يعرف اخبار البندقية : لقد فوجيء المقاتلون المنهوكون بهجوم ثقيل ماحق ، وفقدوا ، وهم يتراجعون ، سبعة رجال وحملوا اربعة جرحى واختفوا في التلال .

وفيما كان يتسقط اخبار البندقية من جهة واخبار شعب من جهة اخرى ، انحدر ما تبقى من مقاتلي تلك القرية الصغيرة ، بعد ساعتين من تراجعهم ، واكتسحوا القرية مرة ثالثة كلمح البصر ، وتمركزوا فيها بعد أن الحقوا بالعدو خسائر فادحة وغنموا سلاحا وزادا .

وقال له شخص في « ترشيحا » لو استطاع العودة الى «شعب» لشاهد بندقيته على كتف رجل في الساحة . وكما تمسك بها يوم انتزعها باسنانه من قبضة القتيل شدها اليه وهي لما تزل معلقة على كتف الرجل ، وحين استدار هذا الاخير ، مذهولا وشهد امامه ذلك الرجل الطويل الصلب ذا النظرات القاسية والوجه المنهك ، اكتشف انه على ابواب عراك ، فثنى كوعه حول حزام البندقية ، ومد ذراعه الاخرى لتحول دونه ودون العملاق .

لم يكن قادرا على الكلام ، قيل انه كان يبكي ويرتجف كالمحموم، لقد مضت شفتاه الجافتان تتمتمان كلاما ليس بالوسع فهمه ، وامامه كان الرجل الآخر بلحيته الدقيقة وعينيه الفائرتين قد عقد العزم على المضي بالعراك الى احدى نهايتيه .

ـ هذه مرتينتي !

قالها بعد جهد لا يصدق بصوت مبحوح وطفقت عيناه تحدقان الى الرجل العجوز ، كانهما تنتظران الاعتراف ، الا ان العجوز صرخ بوجهه:

ـ مرتينتك ايها النصاب ؟ لقد دفعت ثمنها من حلالي قبل يومين فقط !

وتساءلت العينان في وجهه ، فقد كان مستحيلا بعد ، ان يتكلم ، وجاءه بالجواب :

ـ من حلالي ، اشتريتها امام خمسة شهود من ضابط باعنيها ، وهو يتجه الى الشمال بمئة جنيه .

وارتخت قبضتاه عن البندقية ، وبدا انه ، في لحظة واحدة ، سيتهاوى ولكنه بذل مزيدا من الجهد وهمس : « اريدها لاعود الى شعب ! » .

ـ شعب ؟ لقد احتلها اليهود مرة اخرى قبل لحظات !

ترك البندقية ، فضمها العجوز الى صدره بقوة وتراجع خطوتين، وحين اطمأن تماما الى انه لن يفقد سلاحه سأله :

ـ هل كانت هذه المرتينة لك ؟

ـ دفعت ثمنها مئة جنيه مهر ابنتي التي رفضت كل عمري ان ازوجها لذلك العجوز الشحيح ، ولكن ماذا تريدني ان افعل الآن ؟ لقد دفع المهر مئة جنيه وبدوري دفعتها ثمنا لهذه التشيكية .

وبهدوء استدار ومضى ... ولم تشاهده « ترشيحا » ولا يدري احد اين ولى !

لم اهتد بعد الى اسم العروس التي بيعت ثمنا للبندقية ، ولم اعرف بعد ماذا فعل العجوز بتلك البندقية الجديدة ، ولا ادري كيف انتهت قصة شعب ، وكيف انتهت اخبار اولئك الرجال الاربعين الذين ذابوا كما يذوب الدخان امام وجه النار !

فتش يا « رياض » معي عن ذلك الرجل ... انه رجل طويل جدا ، صلب جدا ، لا اعرف اسمه ، ولكنه يرتدي بدلة كاكية قديمة، ويبدو وكانه محاط بغبار مضيء ، ويلوح لاول وهلة ، حين يستوقفك ليسألك : هل رأيت العروس ؟ يلوح كأنه مجنون !

ابحث معي عنه ، حيث انت ، فلدي اخبار جديدة عن العروس!»

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

توزعت نفسه ما بين ذاك وذا   فضاع معناه بين البعد والقرب
كأنه كرة يلهو الصغار بها   او آية الحمد في سفر من الريب

تلك الاساطير من شهد ومن لبن   تحولت علقما في عيشه الخشب
يشارك القوم في اعيادهم فرحا   والله ادرى بما يخفيه من كرب
لا تنخدع ببريق في محاجره   ما في السراب غنى للظامىء السغب
هذا الهزيج الذي ينساب في فمه   نار موججة في صدره التعب
دنياه قاتمة الافاق عابسة   وفجره مائج الافاق بالكذب
لا يذكر الدار الا غاب في حلم   زاهي الحواشي والا اهتز من طرب
ايام يرتع في امن وعافية   خالي السريرة من هم ومن رعب
خلق اللباس عزيزا في خصاصته   من قال ان العلى في الملبس القشب ؟
يغفو قريرا على الاشواك تلذعه   كأنهن رموش الزنبق الرطب
ويشرب الماء رنقا لا يغص به   كأنه يستقي من سلسل عذب
لا يشرئب الى ما عز من طلب   ولا يزاحم مغرورا على لقب
اذا تعصى عليه حل مشكلة   جدية حلها بالهزل واللعب
وان تصارعت الاهواء واضطربت   انا اليها بطرف غير مضطرب
ما دام يملك ما يكفي للقمته   فأي داع لهذا الشر والشغب
تهيج زقزقة الحسون نشوته   وتستثير هواه انة القصب
دين الحضارة في عينيه شعوذة   ومجدها حبب طاف على حبب

يا ذكريات الصبا رفقا بمنهدم   ويا خيال الحمى لطفا بمغترب
ما كان اخسر في الدارين صفقته   لما لوى وجهه كن كوخه الخرب
اغرته خلف مرامي الافق جلجلة   وزلزلت عقله اسطورة الذهب
قالت له الكتب ان لا خير في بلد   محل ، فهام وراء المرتع الخصب
وما تعلم الا بعد هجرته   ان السعادة شيء ليس في الكتب
جنى عليه واشقى اهله طمع   يا ليت يا ليت لم يذهب ولم يؤب
لم تبق منه بلاد المعجزات سوى   ما تترك النار في كوخ من الخشب
اعطته حفنة صلصال فجاد لها   بالغاليين شباب الروح والعصب
وزانها بالنجوم الزهر ينجبهم   للسيف والضيف ، او للعلم والادب

يا مسقط الراس اضناني هواك فهل   يشفي هواؤك ما في الصدر من وصب
صخب المدينة كابوس اضيق به   من ينقذ البلبل الشادي من الصخب؟
حملت رسمك في عينيّ وفي خلدي   ولذت باسمك في صفوي وفي غضبي
اهوى ترابك ، لكن ليس لي امل   ان استريح غدا في صدرك الرحب
اثنان في اخر الدنيا تركتهما   يحببان الى عيني مغتربي
طفل ينضر دربي بابتسامته   وحلوة ينتهي في ظلها تعبي
اولاهما ما بكى قلبي ولا التفتت   عيني الى البحر او طافت على السحب
اغفو فيملأ احلامي خيالهما   واستفيق فيستلقي على هدبي

عاد الغريب ولكن بعد ان خبطت   سفينة العمر في داج من النوب
تلك الغصون الزواهي في خمائله   لم يبق منها سوى شيء من الحطب
يا رب شدد خطاه في رسالته   من دق بابك لم يحزن ولم يخب
اعطى العروبة قلبا صادقا ويدا   فاجعل نهايته في خدمة العرب !

بوانس ايريس ـ الارجنتين   زكي قنصل

شاعر الشام المجيد الخليل بن مردم

بقلم نافذ دانشمن

المدرس في معهد ازمير الاسلامي العالي

* * *

اهدى الي الشاعر الفاضل عدنان مردم بك ديوان شعر والده الفقيد خليل مردم بك ، وقد قدم له رجلان من اعلام الفكر والادب السوري ، اعني بهما الاستاذ جميل صليبا والاستاذ سامي الدهان هدية سنية لا تقوم بقيمة ولا يفي بحقها ثناء . فلو لم آنس بها في وحدتي لظلت اكثر اشعار الخليل خافية علي ولاقصيت عن التمتع بآثار نبوغه حقبة من الدهر .

تصفحت ديوان هذا البحر الذاخر وغصت في اعماق لجته فوجدتني قبالة شاعر مجيد قلما يسمح بمثله الزمان ، وبانسان كامل صيغ من الرقة والعطف والحنان ، والانفة والصدق والاخلاق : بعيد عن التكلف ، لا تشوب اشعاره شائبة المدح الكاذب ولا لوثة الهجاء المقذع . يشرق اشراق الشمس على سواد المآت من الشعراء الذين يعج بهم تاريخ الادب العربي ممن كانوا يبيعون الغالي الثمين من نتاج قرائحهم بالرخيص الارخص من المال ، ويبذلون ماء وجوههم لينالوا عطف من لا ترجى مودته ولا يتقى سخطه او رضاه بمثقال .

والى جنب هؤلاء نفر من رجال الشعر والادب الذين ينتمي اليهم الخليل بن مردم . جادوا علينا بنماذج الفصاحة والبلاغة والبيان ، وحملوا راية الفضيلة والمروءة والشرف ، نأخذ عنهم كما اخذ الاباء والاجداد ، وسيأخذ عنهم من بعدنا الابناء والاحفاد ، اعيد على ذاكرة القراء اسماء بعض هؤلاء الرجال .

فما اعظم الشنفرى في لاميته اذ يقول :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى — وفيها لمن رام العلى متحول
واستف ترب الارض كيلا يرى له — علي من الطول امروء متطول

وما اشرف الشريف الرضي حيث يقول :

مهلا امير المؤمنين فاننا — في دوحة العلياء لا نتفرق
الا الخلافة ميزتك فانني — انا عاطل منها وانت مطوق

وما اعز المتنبي حين تثور به ثائرة العزة فيقول :

اذا غامرت في امر مروم — فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير — كطعم الموت في امر عظيم

وهل بين شعراء العالم من يداني حاتم طيء بسموه ونبله وتضحيته حين يخاطب زوجه قائلا :

دعيني أطوف في البلاد لعلني — افيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما ان تلم ملمة — وليس علينا في الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث — تلم به الايام فالموت أجمل

وهل رات الدنيا مثالا في التضحية كعلي بن ابي طالب بعد ان آلت اليه امارة الناس . يجيب من يلومه على تقشفه واقتناعه بالنزر القليل من القوت : « ايشبع ابن ابي طالب وفي اليمامة من يحن الى القد ويهش الى القرص » . ويمضي في قوله متمثلا بهذا البيت من الشعر :

وحسبك داء ان تبيت ببطنة — وحولك اكباد تحن الى القد

والخليل بن مردم – اذ يعتبر احد رجال هذا الرهط الذين رقت بهم اريحيتهم الى مراقي المجد ، يشعر شعورهم بواجب المحبة والمعونة والاخلاص نحو المجتمع الذي انجبه . لذلك تراه آية في الاخلاص لاهله واصحابه وعشيرته وبلده الذي هو يشدو بجمال معالمه ومغانيه . وهل هو الا جزء حي من اجزاء هذه الطبيعة ، ولسانها الناطق الذي يترجم لها بصدق الطائر المفرد على فتنه .

من ادل الابيات على رقة احساسه ورافته بالفقراء والمساكين ما قاله في قصيدته « اليتيم الجائع » :

طفل يجوف الليل يبكي عاريا — نال الضنى من جسمه ما نالا
سالته ما خطبه فتدفقت — منه الدموع فما استطاع مقالا

ولكن الشاعر ما زال يطيب نفس الطفل ويواسيه حتى هدأ جأشه . فأخذ يقص قصته قائلا :

ذهب الزمان بوالدي ولم يدع — حتى طوى عما وأودى خالا
وشقيقة كالغصن في غلوائه — عصفت به ريح المنون فمالا
واعض ناب الجوع طاوي مهجتي — وانابني داء عليه عضالا
فسعيت نحو الموت اعلم انه — من ضنك هذا العيش احسن حالا

وهنا اطفأ الجوع والضنى والمرض نبراس حياة الطفل اليتيم فألقى بنفسه بين يدي الشاعر . ووقع هامد الجثة بدون حراك . فيصور لنا الشاعر هذه المأساة:

لفظ الحياة على يدي فشمتها — نورا الى الملأ العلي تعالى
وسمعت هينمة الملائك حوله — ورأيت رحمة ربنا تتوالى
فهناك اسقط في يدي وعقنني — جلد تملك مدمعا هطالا

مثل هذه الاحداث تحدث كل يوم ، وتنقل الينا الصحف ما هو ادهى منها وامر . ولكننا لا نألم لها المنا لشقاء هذا الطفل اليتيم الذي صوره لنا الشاعر تصويرا ينفذ الى شغاف القلوب . انه يرى حقا عليه عون الضعيف وانقاذ العاثرين . فيقول بهذا المعنى في قصيدة « اغاثة البؤساء » :

بل لست افهم معنى للحياة سوى — عون الضعيف وانقاذ الذي عثرا
والناس ما لم يواسوا بعضهم فهم — كالسائمات وان سميتهم بشرا
ان كان قلبك لم تعطفه عاطفة — على المساكين فاستبدل به حجرا
هي الاغاثة عنوان الحياة فان — فقدتها كنت ميتا بعد ما قبرا

لا شك ان شعور الشاعر العميق بآلام البشر كان من اهم الاسباب التي اذوت مهجته واذابت حشاشته . فقد عاش خليل مردم بك في النصف الاول من هذا العصر ، حيث اخذ كل شيء يتغير ويحور بسرعة لم نكن نعهدها من قبل : تغيرا في القيم العقلية والنفسية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية مما ادى الى انحلال الامبراطوريات البالية التي قامت على اشلائها ، بعد الحرب العالمية الاولى دويلات لا حول لها ولا قوة ،

ابتلعتها اطماع الدول القوية كما يبتلع كبار الاسماك صغارها ، فاختل التوازن العالمي وما زالت البشرية تتسكع في مشيها حتى انفجرت الحرب العالمية الثانية ، فقصفت ظهر القوي والضعيف معا وشطرت العالم شطرين متناقضين، يهدد خصامهما كيان البشرية جمعاء.

اترى ان اشباح هذه المصائب والخطوب التي دهت بني ادم خلال الحربين العالميتين ومن بعدهما ، ضمينة باطالة عمر الشاعر الذي قر وتأصل في قلبه الحزن ، فهو يقول في وصف هذا الحزن الذي علق بنفسه حتى احبه :

اعن اللهم من صورته من حزن
الف الحزن فلو فارقه الحزن بكاه
وجفا اللهو فلو واصله اللهو شكاه
نفسه ليس لها غير الاسى من سكن

لا يصعب على كل من عاشر خليل مردم بك ولا على كل من اجتمع به ولو مرة واحدة ان يلمس جانب هذا الحزن في اعماق الشاعر ، وان يرى اثار تخريبه في جسمه النحيل . فكأنما احس الشاعر بدنو اجله قبل اوانه ، فيندب على نفسه فراق الاصحاب والاحباب ويأسى انطفاء جذوة الحب التي اذكتها يد الرحمن في قلبه الخفاق ، فيقول الشاعر في نفس القصيدة ، قصيدة « المحزون » متحدثا باسم ذلك الحزين الذي هو خليل مردم بك :

قال لا آسى اذا لاقيت يوما مصرعي
انما اخشى على حبي ان يودي معي
فاحفظ اللهم هذا الحب واحسن وصن

ثم يعود الشاعر ويبدي اسفه وهلعه لفراق هؤلاء الاحبة والاصحاب اذا اختطفته يد المنون فيقول :

ولست بهياب من الموت والردى … ولا فرق عندي: طال او قصر العمر
ولكنني اخشى فراق احبة … كرام واسفار اذا ضمني القبر

ومن ادل اشعار الخليل على شغفه بمذاكرة الاحباب والاصحاب ، قصائده الطويلة التي بعث بها الى الامير شكيب ارسلان ، يطلب اليه ان يجيزه في نظم الشعر ، فيجيبه الامير على هذه القصائد بنظائر لها تشهد له بقوة العارضة في نظم الشعر لا تقل عن براعته بمعالجة افانين النثر .

والحقيقة ان الشاعر خليل مردم بك ، اخذ ينشد في شبابه صنوا له يخاطبه فلم يجد اديبا ذا اريحية تعدل اريحيته سوى الامير شكيب ارسلان على ما بينهما من تفاوت في السن ، ومما تجدر الاشارة اليه انابين الرجلين تشابها عظيما في النشأة والعقيدة ، والنزعة الادبية والتفكير . فكلاهما تأدب وتثقف على ايدي اساتذة معتصمين بتقاليد الادب العربي الصحيح . وكلاهما منكب على حفظ اثار السلف من الشعراء المبرزين، وكلاهما مسلم فخور باسلامه وكلاهما ابي النفس ، شريف ، لا يغمز جانبه ولا تلين قناته عند الشدائد ولا يسام .

اجتمعت بالاستاذ خليل مردم بك في دمشق ، فلم يحجب فرط تواضعه عن حدسي ما يختلج في صدره من امان ومما يؤرثه من وجد وهموم واشجان .

تبسم كرها فاستبنت الذي به … من الحزن البادي ومن كثرة الوجد

واجتمعت اكثر من مرة بالامير شكيب ارسلان في باريس ، عقب جولة قام بها في سواحل البحر الابيض — وقد زار خلالها كثيرا من البلاد الاسلامية التي كانت ترزح تحت اعباء الاستعمار — فكان يذرف الدمع مدرارا على مصابهم ويبشرهم بقرب الخلاص ويجرعهم اقداح الامل فيبعث فيهم روح الجد والعمل والنشاط .

ومن ادل اشعار الرجلين على دراية بعضهما ببعض ما قاله الاستاذ خليل مردم بك في صنوه الامير شكيب ارسلان :

اليك امير السيف والقلم انتهت … كرام خصال قد تجاوزت الحصرا
عفاف واقدام وحزم ومنعة … ومجد تسامى رد عين العلى حسرى

فيجيبه الامير شكيب ارسلان بشعر من نفس القافية والروية قائلا :

كما هام قلبي بالخليل بن مردم … هنالك الهوى العذري قد اصبح العذرا
اجل سراة الشام بيتا وانه … لاحدثهم سنا واكبرهم قدرا
وارجحهم ذرعا واطولهم يدا … واكرمهم بحرا واصدقهم نجرا

ولا شك ان ابين مزايا الشاعر خليل مردم بك هي فرط حبه لكل ما يتصل به . فهو يعشق الجمال في شمائل النساء وفي بهجة الطبيعة وعظمتها ، وفي نوح الحمائم وتغريد الطيور ، وهدير المياه واريج الزهور ، وصولة الرياح وهياج البحور ، بلغ الهوى العذري منه مبلغا لا نعهده الا في اشعار الجاهلية .

انظر اليه كيف يصور لوعة الحب التي تعذب قلبه المعنى :

مقلة عبرى ودمع يكف … وهوى تام وقلب يجف
لست بالصابر عنها ساعة … وهي في حكم الهوى تعتسف
كيف ذرت في فؤادي حبها … ثم ضنت فهي بي لا تراف
يا هواها فاقض بي ما تشتهي … علها ان مت يوما تأسف

وانظر اليه كيف يصف البحر في هياجه وهدوئه وصفا يهتز له نابغة الشعر الالماني « غوته » ويغبطه عليه الشاعر الافرنسي « لا مارتين » واديبها الكبير « شاتوبريان » يقول خليل مردم بك في وصف البحر :

عجبت للبحر يطغى ثم ينقبض … وصدره ابدا يعلو وينخفض
وموجة تلو اخرى ظل يرسلها … تحبو وتنزو وتكبو ثم تنتهض
تلوث اذيالها طورا وتسحبها … طورا على الرمل اذ تهوى وترتكض
احذر من البحر لا تغررك هدأته … ولو تماوت حتى ما به نبض
تقنع الافق لما ثار من فرق … وظل يرعد من ذعر ويرتمض
والشمس خلف اهاضيب السماء لها … عين على وجل ترنو وتنخفض

ويقول في وصف الطفل :

صورة من صور الله التي … خلصت من كل تحريف ومين
فطرة الله التي ما شابها … في كريم الخلق والاخلاق شين
زينة العيش وسلواه فما … ابغض العيش بلا سلوى وزين

فهل قال الشاعر الافرنسي العظيم « فكتور هوغو » ما هو اجمل من هذا واصدق في وصف الطفل .

ويقول الخليل في وصف جمال الله الذي يتجلى في مخلوقاته :

تعالى المبدع القدس مثال عنه مقتبس
ومرآة عليها نور وجه الله ينعكس
والمحه بومض البرق اما عسعس الغلس
واسمعه من الاطيار و الانهار ترتجس

ويصف الشاعر المجيد خليل مردم البرق وصفا لم يسبق اليه كبار الشعراء حيث يقول :

وسرت في السحب منه شعل سريان النار في ثوب خلق
فكأن البرق في تلماحه تارة يخبو واخرى يأتلق
رد طرف حائر او نفس متعب او نبض عرق من فرق
هلته من بين اسداف الدجى أملا من بعد يأس قد برق

هذا واما حب الشاعر لوطنه ومسقط راسه الذي ترعرع في احضانه ، ورتع في مروجه ، وطاف في انحائه ، وعرف منعطفاته ومنعرجاته ، وهام بوديانه وروابيه ، واستظل افياء ارواحه ، فحب اشبه ما يكون بالهيام ، فهو لا يرى في امدن بلاد العالم ما يغنيه عن رقة اهل الشام ، ولا يرى في اجمل بقاع العالم ما يعوض عن ربوع بلده واريج ازهاره وطيب نسيمه وسجع اطياره وصفوة سمائه ، فتعلق الشاعر خليل مردم بك بوطنه اشبه ما يكون بعلاقة النحلة بالخلية ، فلا عجب ان ترى اطول قصائد ديوانه موقوفة على وصف الغوطة وبردى وقاسيون وروائح هذه الارض الطيبة ، فهو يقول في وصف الربوة التي تحرس ابواب دمشق والمزة الحافلة بآرامها الحسان :

حيي الشآم وربعها ذات الينابع والنهور
فالربوة الفناء ما أحلى بها سجع الطيور
ذات الوهاد مع النجاد مع المياه مع الزهور
اشجارها كعرائس متضمخات بالعبير
وبدوحها تشدو الحمائم بالعشي وبالبكور

وقبل ان نختم كلامنا عن هذه الناحية من نواحي الشاعر لا بد لنا من الاشارة الى ايمانه بتألق عبقريته ، فهو يقول في آخر قصيدة « الربوة والمزة » :

والشعر من فرط الجوى قد جاش منا في الصدور
فنظمتها عصماء مثل الدر ينظم في النحور
زفت اليك كغادة هيفاء آنسة فتور
من شاعر انا هو عزيز النفس مطبع قدير

يمتاز الشاعر خليل مردم بك بهذا التفاني في حب بلده ، والتمدح بجمال ربوعه ومغانيه، وباخلاصه وصدق شعوره وبعده عن التكلف ، يمتاز بكل هذا عن اكثر شعراء الشام وعن كثير من شعراء العصر ، فلا نرى من يضاهيه بين شعراء الشام بجزالة المادة وقوة السبك ، واتصالهم بعهد الادب العربي الزاهر — قبل ان تطغى عليه عناصر الضعف والركاكة والفقر — الا شاعرين جديدين بكل تجلة وتقدير . وهما الشاعر خير الدين زركلي الذي لم اتصل به ولم اعرفه من قرب ، وصديقي وزميلي في تجهيز دمشق (تجهيز عنبر من ١٩٣٠ حتى اواسط ١٩٣٢) الشاعر الجواد الاشم محمد البزم .

فالشاعر خير الدين الزركلي هو عشيق الحرية لا يبغي بها بديلا ولا يريد بها لبلده الا الخير والنجاح ، تمتزج الفصاحة والنغم في شعره امتزاج الشعاع بالهواء وينبثق الاخلاص من لهجته انبثاق الماء الزلال من الينابيع . وبهذا فاننا لا نراه يتفرغ لوصف الطبيعة او بالاحرى لا يندمج فيها اندماج زميله الشاعر خليل مردم بك .

واما ثالوث هؤلاء الشعراء الذين يمتازون بين ادباء الشام المعاصرين بحسن الديباجة ورقة التصوير ، وغزارة المادة وجزالة التعبير — اريد به الشاعر محمد البزم — كان يرحمه الله منصرفا الى الضرب على اوتار الالم والتشاؤم والسخط . ولم يكن يلجأ الى الطبيعة الا ليستعيد منها ادوات الوصف الضرورية للتعبير عن دائه الدفين . فمحمد البزم شاعر متشائم ، وخير الدين الزركلي شاعر مغرم بالحرية ، واما خليل مردم بك فانه من شغفه بجمال بلده فانه يحرص حرص الزركلي على حريته ويألم الم البزم على مصائب الناس .

ويمتاز هؤلاء الشعراء الدمشقيون الثلاثة عن سائر شعراء الاقطار العربية بانهم من اكثر رجال الادب العربي افتخارا بماضيهم وتقاليدهم ، واشدهم احترافا لقواعد الذوق العربي واللغة العربية وعلومها بخلاف ما نراه من استهانة بعض شعراء العربية بالماضي وبقواعد الشعر الدراسي العربي واذواقه ، فبعضهم ما يزال مقلدا لشعراء الدور الذي كسدت فيه اسواق الادب العربي . لا تزال لهجة هذا الادب البالي بادية في اوزانهم وعباراتهم وتصاويرهم وعقليتهم . مما يزري بقدر شعرهم ويكله الى النسيان ، واكثر من هذا وذاك فان بعضهم لا يعبأ بمقاييس الادب الثابتة التي لا تقوم بدونها قائمة الادب والشعر : فيقفشون ويخلطون ويعبثون فسادا ويعبثون باسم الادب العربي .

وبعد هذا فان السبب الرئيسي الذي يجعل شعراءنا الثلاثة اي الخليل والزركلي والبزم في نجوة من العثار ، هو انهم يرجعون في ماضيهم الى عهد أمية بل الى ابعد من ذلك أي الى عهد يعرب وقحطان ، لا غرو ان دمشق كانت ردحة من الدهر عاصمة دولة مترامية الاطراف ، تمتد ساحة نفوذها من حدود الهند والصين الى اواسط اراضي الفول في فرنسا الحالية . اضيف الى ذلك ان زعماء كافة الطوائف والعناصر الشامية — ولا سيما زعماء هذه الطوائف المثقفون — اكانوا من ادباء اهل السنة والرافضة او الشيعة او من ادباء المسيحيين ارثوذكسا كانوا او مارونيين ، فكلهم يشعرون اعمق الشعور بعروبتهم ويحرصون كل الحرص على لغتهم . ولكل من هؤلاء شعراء وادباء يعتبرون من اعلام النهضة العربية الحديثة في سورية ومصر ولبنان .

سندباد

ما هم ، فلترحل الـى الجزر البعيدة سندباد
لم يبق من الاعماق من لهف الحنين سوى الرماد
ارحل الى الوهم البعيد ، كطائر عبـر الوهاد
فالليل يرحل في دمائك ، في العيون ، وفي الفؤاد

قدر على عينيك محفور الحكاية ، كالخطيئة ..
وعلى جبينك قصة المأساة ناطقـة مضيئة
تتهدل الاحلام في عينيك طاهـرة بريئـة ..
والدهر كالتنين ، يلتهـم البراءة والمشيئة

خلف الغيوم تطل مـن عينيك أغنية انتصار ؟
يا أيها المهزوم .. حسبك ان تعيش على انتظار
ضاع اليقين مع الظنون ، وليس يجديك الفـرار
أنى ارتحلت .. الى البعيد ، يظل يلطمك الجدار

من عالم الاقزام ترحل عبـر أودية الافاعي
ومع البحار ، مع الرياح ، تظل ملتهب الشراع
وتنقل الخطو الكئيب من السراب الـى الضياع
كالوهم ترحل في الغيوب بـلا عناق او وداع

ماذا لقيت مـن الرحيل سوى عذابات الرحيل ؟
عيناك متعبتان .. لا ترحل مـع الدرب الطويل
فالشاطىء الموعود والكوخ المهوم فـي الاصيل ،
اسطورة الوهم الجريح وكذبـة الروح العليل .

الرياض — راضي صدوق

ومما نرجوه ويرجوه كل حريص على دوام هـذه النعمة الادبية هو ما نراه مـن تسرب الضعف الـى لسان الصحافة عامة ولا سيما الى لسان الجرائد اليومية التي نعول عليها في تثقيف العامة .

سألت بعض معارفي مـن رجال الفكر والعمـل السوري عن سبب ذلك ابان زيارتي لسوريا عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ فقالوا لي : ان حاجة الصحافة الـى مخاطبة الجماهير هو الذي يحملها على الاسفاف الـى مستواهم اللغوي . تلك ظاهرة اجتماعية تسيطر علـى اساليب الدعاية والنشر مع ان كافة رجال النهضة الادبية فـي اواخر القرن التاسع عشر وفي مستهل القـرن العشرين ــ واكثرهم من اصل سوري او لبناني ــ كانوا يحرصون على التأنق باللفظ والعبارة والاسلوب . فهـذا الحرص وهذا الطموح المحمود هما اللذان انجبا كثيرا مـن فحول الشعراء في الاقطار العربية . ولولا هذه النزعة الادبية لما نبغ الخليل بن مردم ولا خير الدين الزركلي ولا محمد البـزم .

ومهما يكن فان انصار الادب العربـي الدراسـي يبشرون ــ علـى ندرتهم فـي هـذه الايام ــ بالنجاح لان موارد نزعتهم سليمة صالحـة ، ومقاييس أدبهم قويـة راسخة ، ولنا في اشعار ومسرحيات عدنان مردم بـك نجل الشاعر الفقيد خليل مردم بك ، وفي اشعار زملائه واقرانه اسوة حسنة تطيب لهـا النفوس وسوف اتناول ان شاء الله في مقال آخر شعر هـذا الجيل البار مـن الشعراء .

استنبول — نافذ دانشمن

الاذن تعشق

« الاذن تعشق قبل العين احيانا » بشار بن برد

★

سمعتها في رخيم اللحن ترويه ... وتسكب السحر يفريها وتفريه
خمصانة تترك الالباب شاردة ... في جوف ليل تناجينا غوانيه
السمع هب كمجنون يلاحقها ... يهيم في الافق لا الانظار تأتيه
ولا الخواطر في جنح الخيال لها ... وسيلة للهوى تحنو فتؤويه
على الاثير تلاوين تلاعبه ... فتبصر الاذن ما الافكار تخفيه
فهل علي لدى المحبوب من حرج ... ان بت اهوى كلاما فاح من فيه
صوفية الفن لا حد يقيدها ... في شطحها غرق لا السبح ينجيه
وما المراكب فوق البحر تنجده ... وربما جنت الاسماك تفنيه
(سيرين) نحوك اذني شوق مسمعها ... (كعولس) انا والاقدار تعنيه
في غنة اللفظ ترحال النشيد الى ... دنيا التهاويل حين الصوت يحييه
لو قلت آه لماج النجم من طرب ... بغمز الحاظه حلوا تناغيه
تفنى البشاشة اما جئت تظلمها ... بالكبت والحر لا يعنو لعاديه
يا من شغفنا به والليل معتكر ... لا يدرك الحب الا في معانيه
يكرس الرقص تفنينا ويمزجه ... بالوصف حتى يكاد الحس يبديه
على اصابع رجل خفق هفهفة ... ترف كالطير في احلى مجاليه
بيض التجرد مكحولات اجفنها ... بميد شيطانها حتى تلاقيه
فترفع الساق نحو الرأس لاعبة ... وتسفح الشعر في سكب ترويه
حي الخيال الذي ينساب جامحه ... في ليلة الشوق فالدنيا تحييه
نخاف يفلت من بين الجفون ولا ... نشاء حبسا له فالحبس يؤذيه
حطي على القلب ما قد شئت من وله ... فقد تمرس بالالام ماضيه
انا الذي زحزح الاحزان مبسمه ... وراح يضحك في اقسى مباكيه
هذي الحياة لها وجهان فالتمسي ... عذرا لمحياي فالامال تبقيه
ما جف قلبي من حب ولا ولع ... رغم السنين التي بالبعد تطويه
يخضر عودي على نفح الغرام وما ... وجدي يذوب ولا تفنى غواديه
والعيش بسمة محبوب تواصله ... ولو باحلامنا والوهم يكفيه
عصفورتي غردي فالعمر منصرم ... والصوت يخلد في اسمى اعاليه
سكنت سمعي فلا والله ما عرفت ... جوارحي منك الا ما أناجيه

هاروتتان ، وماروت انا ، ولنا ... ليل على السحر بالانغام نحييه

دمشق

زكي المحاسني



الدكتور محمد رجب البيومي

اثر حديث المعراج في الرحلات الغيبية

يقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

يتابع علماء الادب المقارن الصلات القريبة والبعيدة بين الآثار الادبية في لغات العالم ، فيعقدون موازنات دقيقة بين ما يلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الافكار والاخيلة ناقدين محللين وكثيرا مـا ينتهون الى الحكم بالتأثير القريب او البعيد في اثر من الآثار الذائعة حين يحللون عناصره الادبية فيجدون بينهـا أصولا تمت الى اثـر اجنبي آخر !

وهذا شيء طبيعي في دنيا القول لان الافكار الادبية والعلميـة تتناقل وترحل في كل مكان والاديب او العالم قارىء مثقف يلتقط ما يعثر عليه ان قريبا وان بعيدا ، وهو لا محالة متأثر بروائع مـا يقـرأ ولا يستطيع ان يمنع عن تفكيره وخياله ما يرفدهما بالقوة والنماء !

وقد كان حديث المعراج الذي حكاه نبي الاسلام احد هذه الآثار الادبية الخالدة التي امتد تأثيرها الى آداب أمم مختلفة ! والتي احدثت دويا عاصفا بين علماء النقد المقارن حين لمسوا خيوطها البارزة في اكثر من نسيج فني ! ولعلنا نومىء الى ذلك ببعض التفصيل !

ان كتب الاحاديث النبوية تروى عدة آثار خاصة بليلـة المعراج فهناك روايات سنية عن أنس بن مالك تلقى بعضها عن ابي ذر وبعضها الآخر عن أبي هريرة وعن مالك بن صعصعة الانصاري !

وهناك آثار شيعية عن الامام زيد بن علي بن الحسين بن علي بـن ابي طالب تلقاها عن ابيه عن جده عن علي عن رسول الله ! وهنـاك روايات لا تصل الى درجة ما روى عن أنس وزيد رضي اللـه عنهما ! بل تظهر عليها آيات الوضع وعلائم الاضطراب ومن كل ذلك امتـد حديث المعراج امتدادا كبيرا واحيط باقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ! بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتابا ضخمـا برأسه ! ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الاحاديث المختلفة فـي رواية واحدة وجعلوا منها نسقا متصلا متلاحقا ، بـل انهم تعدوا احاديث المعراج الى احاديث اخرى عن شق الصدر والرؤيا الصادقة وضمـوا ذلك كله الى حديث المعراج ، ثم انتقل هذا الحشد الـى الاجيال المتلاحقة فقراه العلماء والادباء وترجم الى اللغات الاجنبية فاحـدث دويه الرنان !

ونحن الآن في مجال ابراز التأثير القوي لحديث المعراج في الادب العربي والآداب المختلفة نضع فاصلا بين ما صحت روايته عن الرسول او رجحت ، وبين ما ضعفت نسبته اليه لاسباب ذكرهـا المحدثون ! نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته الى الرسول كان الاساس الاول لهذه الصورة الجميلة عن السماء والارض والجنة والنار اذ ان محمدا صلى الله عليه وسلم حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت امام الادباء مجال التصور الفسيح ! ومن هنا كان تأثيره المباشر في كل رحلة خيالية الى السماء والى الجنة والنار !

اما ما ضعفت نسبته اليه فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج وناسجين على منواله ، فلولا انهم رأوا الكوى المضيئة باشعة من حديث محمد ما استطاعوا ان يقولوا شيئا ! وهنا يكـون الحديث الموضوع وليد تأثير من الحديث الصحيح فاذا استلهمه بعضهم فانما يردون موردا اشتق ابداعه والهامه مـن حديث صحيح ! ويمكننا اذ ذاك ان نعتد ما ساق الوضاعون من حديث المعراج ادبا مصنوعا استلهم البيان النبوي ثم نقل تأثيره الى ادباء العالم ، وهم بانتاجهم المتشابه يعلنون بلسان النقد ان صاحب الابداع الاول هو نبي الاسلام لا محالة! وغيره قد احتذاه ...

واذا كانت رواية انس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعـراج بما هو معروف من مجيء جبريل الى النبي وتقديمه البراق وارتقائـه الى السموات السبع فرؤية آدم ويحيـى وعيسـى ويوسف وادريس وهرون وموسى وابراهيم بعد سؤال وجواب عن القادم والاذن لـه بالزيارة ثم مشاهدة انوار رب العزة وفرض الصلاة خمسا بعد خمسين عقب مراجعة تنشد التخفيف .. اذا كانت رواية انس بـن مالك تقف عند ذلك فان رواية الامام زيد بن علي وهو الفقيه المجتهد تفصل الامر بوضوح مستوعب ! وهذا نصها :

قال علي بن ابي طالب صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر يوما بغلس ، فلما قضى الصلاة التفت الينا وقال : أفيكم من رأى الليلة شيئا ؟ قلنا لا يا رسول الله قال ولكني رأيت كأن ملكين أتياني فاخذا بضبعي فانطلقا بي الى السماء فانطلقت فمررت على ملـك وامامه آدمي وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمي ، فيقع دماغـه جانبا وتقع الصخرة جانبا ، قلت ما هذا قالا امضه ، فمضيت فاذا انا بملك وبين يديه آدمي وبيد الملك كلوب من حديد فيضعه فـي شدقه الايمن فيشقه حتى ينتهي الى اذنه ثم يأخذ في الايسر فيلتئم الايمن قلت ما هذا قالا لي امضه ، فمضيت فاذا انا بنهر من دم يفور كفوران المراجل وعلى حافتي النهر ملائكة بايديهم نار ، كلما طلع طالع قذفـوه بها ، فيقع فيه فيشتعل الى اسفل ذلك النهر ، قـال قلت مـا هـذا قالا امضه ، فمضيت فاذا بيت اسفله اضيق من اعلاه ، وفيه قـوم عراة تفور من تحتهم النار فامسكت على انفي من نتن مـا اجد مـن ريحهم ، قلت ما هذا قالا امضه ، فمضيت فاذا انا بتل اسود عليـه قوم مخبلون تنفخ النار في ادبارهم فتخرج مـن افواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، قلت ما هذا قالا امضه ، فمضيت فاذا انا بنـار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شيء الا اتبعه حتى يعيده فيهـا ، قلت ما هذا قالا لي امضه ، فمضيت فاذا انا بروضة خضراء واذا فيها رجل شيخ جميل لا اجد اجمل منـه ، وحوله الولدان ، واذا انـا بشجرة ورقها كآذان الفيلة ، قلت ما هذا قالا امضه ، فصعدت الـى ما شاء الله من تلك الشجرة فاذا انا بمنازل لا منازل احسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء قلت ما هذا قالا لـي امضه ،

فمضيت فاذا أنا بنهر عليه جسر من ذهب وفضة وعلى حافة النهر منازل لا أحسن منها من درة وزبرجدة وياقوتة وفيه اقداح وأباريق ، قلت ما هذا قالا لي انزل فنزلت فضربت بيدي الى اناء منها ثم فرغت فشربت فاذا هو احلى من العسل واشد بياضا من اللبن وألين من الزبد ، فقالا لي : اما صاحب الصخرة التي رأيت الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانبا وتقع الصخرة جانبا فاولئك الذين كانوا يناموا عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلوات لغير وقتها . فهم يعذبون بها حتى يصيروا الى النار ، واما صاحب الكلوب الذي رأيت به ملكا موكلا بيده كلوب من حديد يشق به شدقه الايمن حتى ينتهي الى اذنه ثم ياخذ في الايسر فيلتئم الايمن ، فاولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا فهم يعذبون بها حتى يصيروا الى النار ، واما البيت الذي رأيت اسفله اضيق من اعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار فامسكت على انفك من نتن ما تجد من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا الى النار ، واما التل الاسود الذي رأيت عليه قوما محنيين تنفخ النار في ادبارهم فتخرج من افواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا الى النار ، واما النار المطبقة التي رأيت ملكا موكلا بها كلما خرج منها شيء اتبعه حتى يعيده فيها فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار ، واما الروضة الخضراء التي رأيت فتلك جنة العامة . واما الشيخ الذي رأيت لا اجمل منه حول الولدان فذاك ابوك ابراهيم ، واما الشجرة التي رأيت وطلعت اليها فيها منازل لا منازل احسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء فتلك منازل أهل عليين من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ، واما هذا النهر الذي رأيت فنهرك الذي اعطاكه الله وهذه منازلك ومنازل امتك ثم نوديت من فوقي يا محمد سل تعط ، فارتعدت فرائصي ورجف فؤادي واضطرب كل عضو مني ولم استطع ان اجيب شيئا فاخذ احد الملكين يده اليمنى فوضعها بين ثديي واخذ الآخر فوضع يده بين كتفي فسكن ذلك مني ، ثم نوديت من فوقي ، يا محمد سل تعط ، سل تعط ، قال قلت اللهم أسألك ان تثبت شفاعتي وان تلحق بي أهل بيتي وان القاك لا ذنب لي » (١)

هذه بعض المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكان من المنتظر ان ننقل حديث ابن عباس بدل حديث زيد بن علي ، حيث يتضمن كثيرا من مشاهده ولكن المحدثين قد ردوه مع ما ردوا من روايات ضعيفة ذكرها الدكتور علي حسن عبد القادر ص ١٢٨ من كتاب المراج ، كما ذكر الدكتور بعض مصادر الروايات الصحيحة ص ١٢٧ ، فحديث المعراج اذن كما روته الروايات الراجحة ، ولخصه حديثا انس وزيد ، يعتبر فتحا مبتكرا في عالم البيان التصويري ، تمخض عن الجديد الطريف وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب حديثا آخر ينحو نحو حديث زيد في لبابه فيتحدث عن رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شدقه ، وعن رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر او صخرة فيشدخ به رأسه فاذا ضربه تدهده الحجر ، وعن رجال ونساء عراة في تنور اعلاه ضيق واسفله واسع يتوقد نارا عليهم ، وعن نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل يحمل احجارا فكلما اقترب سابح النهر رجمه فيرجع وعن روضة خضراء ذات شجر مزهر وبها دار وشباب وشيوخ .. ثم فسر جبريل في حديث البخاري جميع ما يرمز الى ذلك بما لا يخرج عن الاجابة في حديث زيد .

لا جرم ان مشاهد القيامة في القرآن قد صورت اليوم الآخر تصويرا لا ينفد سحره ، ولكن القيام برحلة في عالم الغيب مما ابرزه حديث المعراج لاول مرة في الادب العربي قد افاد منه الخطباء والواعظون في مواقف الترغيب ، والترهيب ، وليس هنا مجال القول في ذلك ولكننا نبحث عن التأثير الفني الخالص في الادب العربي اولا ثم في غيره من الآداب !

اما الادب العربي فقد كان ابو العلاء ابا عذرة الرحلة الخيالية به الى الجنة والنار في رسالة الغفران حيث استهلها بزيارة للفردوس تصف شجره وانهاره ولبنه وخمره واوانيه التي شكلت على هيئة الطير السابحة من كراكي ومكاكي وطواويس ، فبعض في الجارية وبعض على الشط ينبع من افواهها شراب كأنه من الرقة سراب . فاذا قذفوا الاواني في الانهار سمع لها اصوات بمثلها تبعث الاموات ، ثم اخذ يتحدث عمن تخيلهم بالفردوس من الشعراء كزهير بن ابي سلمى وعبيد بن الابرص والهذلي والنابغتين مناقشا اياهم فيما ينقده من ادبهم المأثور ويمر به رف من اوز الجنة فلا يلبث ان ينزل على تلك الروضة ومن شأن طير الجنة ان يتكلم ويناقش ويغني ليسمعه لبيد والجعدي والاعشى ، ثم يقابل حسانا فينقد بعض ما قاله ويتطرق فجأة بصاحبه الى يوم الموقف في يوم مقداره خمسون الف سنة وبه يطول الامد ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلألأ هو حمزة بن عبد المطلب فيرسل معه رسولا الى علي بن ابي طالب ليخاطب النبي في شأنه ، فيمر بأبي علي الفارسي في حلقة من الادباء يناقشونه تخريجاته النحوية والصوفية الى أن يصل الى علي فيسأله عن التوبة ثم يرد الحوض ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتسترحم اباها ، فيشفع له ، ويعبر الصراط الى الجنة فيحاور رضوان قبل دخوله ثم يلج الى نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ولبيد ويقيم لهما ولزملائهما من الشعراء مأدبة حافلة بما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين فيجتمع خلق كثير فتوضع الخون من الذهب والفواثير من اللجين فاذا قضوا الارب من الطعام دار الشراب والغناء وتحدث الادباء مساجلين ! ويعبر طاووس من طواويس الجنة يرونه حسنا فيشتهيه ابو عبيدة مطهوا فيكون كذلك في صفحة من الذهب فاذا قضى منه الوطر انضمت عظامه الى بعض ثم يعود طاووسا كما بدا ، ويمر ملك كريم فيعطيه ثمرة من شجر الحور رمانة او تفاحة او ما شاء الله من الثمار فيكسرها فتخرج منها حورية عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان وتقول له اني اتمنى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة الاف سنة ، ويبدو له ان يطلع الى اهل النار فيركب بعض دواب الجنة فيرى في الطريق جنة العفاريت المؤمنين بمحمد والمذكورين في سورة الاحقاف فيسمع اشعار الجن ويشهد صرع فتاة تصور لها الجن في صورة فأر ثم هي صورة صل ثم في صورة ريح ويتساءل عن لغة الجن وحديث الرجم ، ويرى بعض آساد الجنة ويحادث الحطيئة وقد جلس في اهون منازل الجنة . فاذا وصل الى اقصى مكان بها وجد الخنساء تجلس هكذا لترى اخاها صخرا يعذب في جهنم ، فاذا طاف بالنار رأى ابليس يضطرب في الاغلال والسلاسل ومقاطع الحديد تأخذه من ايدي الزبانية ثم يصطنع على لسانه فكاهة سمجة ما كان أحرى ابا العلاء باجتنابها في مثل هذا الموقف ، ويرى بشار بن برد في اصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم فتفتحها الزبانية بكلاليب من نار فيحادثه مع زملائه المعذبين من امثال امرىء القيس وعنترة وعلقمة وعمرو بن كلثوم وطرفة وابي كبير والاخطل وابليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية « ما رأيت اعجز منكم اخوان مالك الا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه الى سقر ، فيقولون ليس لنا على اهل الجنة من سبيل ، ثم يقابل المهلهل والشنفرى وتأبط شرا وبعد الرحلة الجهنمية يقفل الى الفردوس يحاور آدم وذات الصفا ثم يضرب في غيطان الجنة ليقابل حوريته التي انشقت عنها الثمرة ويتكيء على مفرش من السندس ويأمر الحور العين ان يحملنه فيضمنه على سرير ذهبي في الجنة فيحمل الى محله وكلما مر بشجرة نضحته اغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور !

رحلة رائعة التصوير محلقة في القمة من عالم الفن ولو رسمنا مشاهدها في لوحات فنية كما رسمت مشاهد الكوميديا الالهية لامكن ان تقارن بها . واذكر ان فريقا من اساتذة الادب المقارن قد تلاحقوا بصدد تأثير ابي العلاء في دانتي، فمن مثبت هذا التأثير متعلل بما عرف من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية وبعدها عن طريق مصر والشام وصقلية والاندلس ! فلا بد أن تكون رائعة ابي العلاء مما ترجم وقدم الى دانتي فهضمه ، وتلك قضية يتعذر فيها وجه الحق ، وبخاصة اذا علم ان دانتي لا يمكن ان يصبر على قراءة قصة عسيرة الهضم لدى غير متخصص في علوم العربية اذ ان رسالة الغفران تضم من النقاش النحوي والصرفي واللغوي ما يخفف كثيرا من رونقها . بل ما يجعل تقديمه في ترجمة اجنبية نوعا من الالغاز الغامضة . والذين قد تلاحوا بصدد تأثير دانتي بابي العلاء كان عليهم ان يتجهوا الى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدر الاول لابي العلاء باتفاق أما كونه المصدر الاول او احد المصادر الهامة لدانتي فهذا ما سيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ دانتي جحيمه ذاكرا انه كان يضرب على غير هدى في تيه لا اول له ولا آخر اذ يضل في غابة مظلمة تعج بالافاعي والوحوش وقد انقذه فرجيل من احد الكواسر بعد ان كاد يمزقه، وقد دلفا معا الى الجحيم فسمع دانتي انين المعذبين فسأل عنهم فرجيل فاجابه انهم الذين قضوا حياتهم في لهو يعيشون باوامر الله ! ثم رأى الجبار (خارون) منتصبا كالوحش في زورق ينقل ارواح الاشقياء من عدوة الى عدوة فدارت الارض برأس الشاعر من هول مشهده ، ثم دوى رعد قاصف انقذه من غيبوبته ، فانطلق مع صاحبه الى دركات الجحيم ، وركا وراء درك ليرى بعض الفسقة تعصف به الريح السموم وتنثره كما ينثر الريش في يوم عاصف ، ويرى اصحاب المطامع المنكرة تنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ويمزق اجسادهم الكلب سيرسيروس بانيابه الحداد ثم يعبر دركا اخر ليرى نهرا من الدم تسبح فيه ارواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات ثم يرى في درك آخر عصبة من المزورين المختلسين يسبحون في حديد يغلي بالقار وحراسهم زبانية قباح الوجوه ، اما المنافقون فيرتدون عباءات من نار وطراطير من جمر . وقد فجر دانتي فجورا خسيسا سافلا حين أعماه التعصب فجعل نبي الاسلام - اكرم خلق الله واشرفهم على الاطلاق - بين اهل النفاق من المعذبين ! وذلك ما ينتظر من متعصب ظل يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دون ان تستأصل المسلمين !

ثم يشهد زمهريرا من ثلج وبرد وماء يلف الآثمين في قرار الدرك التاسع ، وحينئذ ينتهي الجحيم ويصل الى المطهر فيهب عليه اول أنفاس الفجر المرطب بالندى ويرى النجوم تتالق في بنفسج السماء ولجة ترغي وتزبد حول جزيرة نائية ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى (٢) ، ثم ينظر دانتي فلا يرى الا خياله حين تشرق الشمس منبطحا على السفح من ورائه فينزعج ويحسب ان فرجيل غادره ورحل ولكن فرجيل يطمئنه ويخبره ان ارواح الموتى اضواء شفافة لا ظلال لها كما يكون لاهل الدار الفانية ثم ينطلقان ليقابلا عشرات الناس من اعلام الادب والسياسة والحب والدين في اوروبا وحولهما ضجيج الارواح الهائمة تلفظ جميعها بهراء من الحسد والاحقاد القديمة ، الى ان يصلا الى شجرة باسقة ذات طلع نضيد وفاكهة حلوة يفوح عبيرها ، وفي اوراقها ارواح تذكر الله وتسبح بحمده وتشكر له ما رزقها من عفة . والناقدون يرون سدرة المنتهى في المعراج هي التي ألهمت دانتي صورة هذه الشجرة ، وترى الارواح الهائمة في النار ظل دانتي على اللهب فتدهش لوجود حي من الدار الفانية في هذا المكان . ثم يلتقي الشاعر بحبيبته بياتريس فتكشف له عن شؤون غيبية كثيرة ويظلان يتحدثان عند نهر يونو ، فاذا انتهى من المطهر سما الى الفردوس فاحتسى جرعة نزعت ما في نفسه من ادران الدنيا وجعلت جسمه ظلاما شفافا وهيولي نقية كي يرقى في السماء دون عائق ، ومضى في رحلة سماوية الى كوكب عطارد والزهرة والمريخ والمشترى ليحدث من ادخلهم الجنة من ذوي محبته مثل جوستنيان امبراطور روما وشارل مارتل قائد النصرانية في معركة بلاط الشهداء وطائفة من ارواح شهداء النصرانية في الحروب الصليبية يمرحون في افياء الجنات الوارفة التي يهتز عنها المريخ ومثل بندكت ودامیانو وبطرس ويوحنا من كبار القديسين . ثم يرى السيد المسيح وفي اثره مريم البتول ثم يدخلان سماء المنتهى - بهذا التعبير القرآني - ذات الضوء الوهاج فيقف قليلا ثم يفيق من رؤياه وتنتهي الرواية .

تلك هي الخطوط الواضحة في كوميديا الشاعر ، واثر حديث المعراج بها اوضح من ان يدل عليه فهو يتجلى في تكوين الهيكل العام للكوميديا من رؤية المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن ادوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحار الدم والصديد ، ومن سرد طائفة من المقابح وما أعد لها من العقاب ، ومن غير ذلك مما يستشفه القارىء من خلاصتنا المركزة التي اوجزنا بها خطوط الكوميديا الالهية وقد قامت معركة حامية بين المستشرقين ما بين منكرين لتأثير حديث المعراج ومثبتين له حتى عثر على مخطوطات قديمة لحديث المعراج ترجمت قديما الى اللاتينية قبل زمان الشاعر مما يثبت المامه بها في لغته ووطنه، ولهذا الكشف الادبي الجليل قصة طريفة لا مناص من الاشارة اليها بايجاز .

لقد عاش دانتي فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ورحل عن الحياة متمتعا بصيت ادبي رنان اذا اعتبرت ملحمته الالهية انضج ثمار الادب الايطالي في جميع عصوره وظلت موضع المباهاة لدى قومه ، فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهكم احيانا - من يسعى لايجاد مقارنة بينها وبين النصوص العربية او اليونانية ، ويرون ذلك محاولة للنيل من شاعر مبتدع جل ان يقرن الى نظير ، ولكن عشاق المعرفة في كل مكان لا يبالون باشباع الغرور القومي لدى بعض الطليان فيهبون له في القرن الماضي يعقدون الدراسات المختلفة بين المتشابهات من امثال ملحمة فرجيل وحديث المعراج ورسالة ابي العلاء . وتتوالى الردود عليهم من المعارضين دون ان يتقدم البحث خطوة الى الامام ، حتى جاء المستشرق الاسباني العظيم الاستاذ آسين بلاسيوس ، سليل ابناء الاندلس الذين اشرقت بحضارتهم الاسلامية أوروبا في عصور الظلمات ، فاخذ على عاتقه ان يترهب رهبنة متصوفة في البحث عن تأثير اجداده العرب من الاندلسيين في آداب العالم وثقافاته ، ووصل في بحثه الى نتائج مدهشة تثبت تأثير بثيولوجية ابن رشد في سان اكوينتس وابن عربي في ريموندلال واخوان الصفا في فرانس انسلمو،وجاءت خاتمة أبحاثه تعلن تأثير القصيدة الاسلامية في كوميديا دانتي اذ ساعدته دراساته العربية العميقة ان يتتبع اكثر خواطر الشاعر معقبا عليها بنظائرها في القرآن والحديث وقصة المعراج . وبعض اثار ابن عربي المتصوف الاندلسي وكان ما قدمه بلاثيوس من النصوص الاسلامية منهلا للكثيرين ممن كانوا يؤمنون بأفكار دانتي وطرافة خلقه الفني.

ولكن مجال الافكار بعد ذلك لا يزال متسعا اذ ان هناك سؤالا لا يجد الجواب الشافي وهو كيف تطرقت المعارف الاسلامية الى الشاعر الايطالي الكبير . ولو كان الجدول المقارن وحده مجال الترجيح لا نحسم النزاع لان تحليلات آسين بلاثيوس كانت من القوة بحيث لا يتطرق اليها اللبس ، ولكن المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت المام دانتي بالثقافة الاسلامية يرفضون كل جدل منطقي مقنع ويودون ما يلمس باليد لا ما يدرك بالعقل ولم يستطع البحاثة الكبير بلاثيوس ان يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها كما مات الفراء وفي نفسه شيء من حتى...

ولكن الحق لم يعدم انصاره اذ اجتهد بعده المستشرق الايطالي

الاستاذ مونيري دي‌فيبار في تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غربيتين مخطوطتين لقصة المعراج كما رواها اهل الحديث النبوي كتبت اولاهما بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد وكتبت الاخرى باللغة اللاتينية وحفظت بالمكتبة الاهلية بباريس وجاء بعده الاستاذ الايطالي تشيرولي ودرس المخطوطتين فاكد وجهة نظر الاستاذ مونيري ومن قبله بلاثيوس وسارع بنشرهما مضيفا اليهما ما تتطلبان من الحواشي والتفسيرات لتوضيح مسالة التاثير ، وبتوالى البحث ظهر أن كلتا المخطوطتين ترجمت عن القشتالية من العربية اذ قام بترجمة القصة الى القشتالية طبيب يهودي كان ببلاط الملك الفونسو باشبيلية سنة ١٢٦٤م يدعى ابراهيم الفقيم ثم نقلها في اثره الى اللاتينية والفرنسية معا الكاتب الايطالي بونافنتورا الذي كان سكرتير الفونسو (١٢٢١ ـ ١٢٧٤ م) . لقد وقعت في ايدينا الوثيقة المطلوبة اذن ، ولو عثر عليها بلاثيوس لعد نفسه اسعد باحث خدم قضية غامضة ، فسلط عليها من الاشعة ما يجلو الغموض ، ولكن الذين تم على يدهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على اروائها وتنميتها بعد ان مهد الارض وقواها بالحراثة والتسميد.. وبهذا اصبح مؤكدا لدى العلماء ان دانتي وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتاثر به في نظمه وتفكيره وخياله اوضح تاثير .

يقول المستشرق الايطالي الكبير الاستاذ امبرتو ريزيتانو الاستاذ بجامعة القاهرة من بحث نشرته مجلة الرسالة بافتتاحية العدد (٩٤٠) ما نصه :

« هذا وقد يتساءل الباحث عما اذاكانت ترجمة من هذه‌الترجمات الثلاث كانت معروفة في ايطاليا أثناء القرون الوسطى ، والاجابة في هذه المرة لا بد ان تكون بالايجاب اذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج في كتابين من‌مؤلفات كاتبين ايطاليين عاش احدهما في منتصف القرن الرابع عشر وعاش الاخر في أواخر القرن الخامس‌عشر، وليس هذا دليلا على انتشار المعلومات عن العقائد الاسلامية وفلسفة العرب في بلاد اوروبا ولا سيما ايطاليا في القرون الوسطى ، هذا ولم يقتصر المستشرق تشيرولى على نشر الترجمتين الفرنسية‌واللاتينية وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب ، بل اضاف قسما ثالثا جمع فيه كل الشواهد التي تثبت هذا الانتشار وعلى رأسها حوار جرى بين محمد صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن سلام ، ترجمه الى اللاتينية ارمانوالد عاطي سنة ١١٤١ نقلا عن الكتاب المعروف « رد الكلام في مسائل عبد الله بن سلام » وقد يتساءل الانسان كذلك عن قيمة البحث الذي قام به تشيرولي والاجابة عن ذلك انه نجح كل النجاح في ايضاح المسالة التي اثارها بلاثيوس كما نجح في وضع هذه المسألة على اساس امتن من الاساس الذي وضعها عليه المستشرق الاسباني».

وأظن المتتبع لادوار هذه القضية بانصاف وحيدة لا يسعه الا القول بتاثير حديث المعراج في اروع تحفة يفتخر بها الايطاليون ، ويقيمون لدانتي كل عام مهرجانا تذكاريا لابداعها ، ويرصدون الجوائز الادبية باسمه من اجلها وكانه بها في رأيهم أعظم اديب عرفه التاريخ.

اما اثر المعراج في الادب الفارسي فما أوضحه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس ، وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألموا بحياة نبيهم ، ثم جذبتهم قصة المعراج الى رحلات خيالية‌بديعة قاموا بها على جناح الشوق الى آفاقهم الروحية ، ومن اشهرهم في ذلك شيخهم الشاعر الاكبر سنائي صاحب كتاب الحديقة ، ومثنويات كنوز الرموز وحديقة الحدائق وسير العباد الى المعاد وغيرها وقد اتصل في صدر حياته بملوك غزنة الا انه تزهد وتصوف على قدم التجريد. وهنا تدفق‌الطوفان الابداعي على لسانه شعرا تردد على‌ألسنة معاصريه‌وتتلمذ عليه‌من‌سلك سبيله من‌بعده، اما معراج‌سنائي‌فقدنشره‌في كتابه (سير العباد الى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذي سقطت فيه الى اصلها الالهي ومقرها الاخير ، في رحلة تصور مقامات المتصوفة واحوالهم تصويرا ،يدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خفايا رموزهم ، واذا كان سنائي قد سبق دانتي في الزمن فان‌المستشرق الاستاذ نيكلسون قد عقد بينهمامقارنات تدل على استقاء الشاعر ايطالي (٣) من معين الفكر الاسلامي ، واذا كان اطلاع دانتي على روائع سنائي لا يزال مجرد افتراض فان اطلاعه على حديث المعراج النبوي قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل الى ضياء اليقين الجازم ، وقد تاتي الايام المقبلة بالجديد من تاثير سنائي اذا اطرد البحث على وجهه النزيه ..

اما متصوفة الادب العربي فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية ، وانوارها السماوية دون شك ، واوضح من تاثر بها عالمان كبيران هما محي الدين بن عربي الاندلسي وابو يزيد البسطامي ، فالاول في الفتوحات المكية قد ذكر عن العرش والسدرة وانوار ذي الجلالة ما نجد اصله في الصحيح من حديث المعراج والموضوع معا، والطريف ان الاستاذ نيكلسون يجعل دانتي متاثرا أيضا بابن عربي في ذلك ويفيض في مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها وقد اشار اليها الدكتور مبارك في الجزء الاول من التصوف الاسلامي ص ٢٠٧ نقلا عن غيره ، اما ابو يزيد البسطامي فقد نشر الدكتور علي حسن عبد القادر نص معراجه ملحقا بكتاب القشيري ص ١٢٩ ، وهي رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات في صور حية تنطق بالبراعة والابداع.

ويقول في مطلعه :

« اني رأيت في المنام كاني عرجت الى السماوات قاصدا الى الله ، على ان اقيم معه الى الابد فامتحنت بامتحان‌لا تقوم له السموات والارض ومن فيهما اذ بسط لي بساط العطايا نوعا بعد نوع وعرض علي ملك كل سماء، ففي ذلك كنت اغض بصري عنها ، لما علمت انه بها يجربني فكنت لا التفت اليها اجلالا لحرمة ربي ، وكنت اقول في كل ذلك ، يا عزيزي ، مرادي غير ما تعرض علي ».

ثم مضى ابو يزيد يذكر ما رآه في السماء الدنيا من طير اخضر نشر جناحا من اجنحته فحملته الى صفوف ملائكة يضعون اقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد الى مقر الاملاك فالهم كلمات قالها ثم صعد الى السماء الثانية فرأى فوجا من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لاميرها وتقدم الى روضة خضرة تحوي نهرا وحوله ملائكة يطيرون الى الارض كل يوم مائة الف مرة ، وعلى حافتيه اشجار من نور ولها اغصان كثيرة متدلية في الهواء وفي كل غصن وكر طير وفي كل وكر ملك ساجد ، فترك ذلك الى سماوات اخرى فاذا جميع الملائكة يسلمون عليه واذا ملك منهم له اربعة اوجه وجه يلي السماء ووجه يلي الارض ووجه يلي الملائكة ووجه يبعث بجنوده يسبحون‌الله في كل مكان ثم نشر جناحا من اجنحته فاذا على كل ريشة من ريشه قنديل يظلم ضياء الشمس في ضوئه وقد اغواه الملك باشياء ترفع عنها اذ ان مراده الاسمى يجل عن الاغراء ثم ارتقى يجلس على كرسي فوق شاطىء بحر عجاج لا اول له ولا نهاية فالهم التسبيح مشغولا بذكر الله عن كل شيء . فاذا ملائكة قيام في السماء رؤوسهم في أجوازها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة فرد عليهم بلغاتهم جميعا ، وما زال يرتقي ويطير ويجول مملكة بعد مملكة وبحرا بعد بحر حتى انتهى الى الكرسي فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم السموات يبرق من كل عين نور تلمع منه فتصير تلك الانوار قناديل حيث يسمع من جوف كل قنديل تسبيحا وتهليلا ثم لم يزل يطير حتى انتهى الى بحر من نور يظلم ضياء الشمس في

(١) المعراج للقشيري تحقيق الدكتور علي حسن عبد القادر من ص ٣٩ ـ ٤٢ . (٢) من ترجمة الاستاذ د. خ من مجلة الرسالة اعداد يوليو واغسطس سنة ١٩٣٦ . (٣) كتاب المعراج ص ١٣ .

نواح المزرعة.. انا والحمامة

تنوح معي عند المسآء حمامة   تشاطرني دمعا تدفق كالسحب
تسيل به عيناي عفوا كانه   ميازيب من مزن تفتقن من هدبي
تخالط سيال المآقي ملوحة   اذا مس خدي صاح من جمرها قلبي
من القرمزي اللون يهمر قانيا   فتشتاره شهد الطلى شفة الصب
لساقية تروي اخاديد وجنتي   اقول لها صبي ومن مقلتي عبي
مضى ركب فضلى الراحلات بمهجتي   فيا ليتني بت المسافر في الركب
انا شاعر فل المصاب روية   فلم يبق غير النوح في الشعر والندب

ترآءت مسآء فجاة لي حمامة   من الافق المهجور في فحمة الدرب
فطارت وراء الايك لمحة بارق   وعادت بمعسول النصيحة واللب
وفي فمها آي المصلى وسلوة   تحن على اهل الفقيدة بالحدب
تقول وقد غصت برقراق ادمع   تصبر اخا البلوى على شدة الخطب
ولي قبل ان وافى اساك حكاية   تمثل مالا قيت بالفتكة الضرب
هبطت ولا ادري افي الحقل ملجأ   قديما وهل في الايك من فنن رطب
فباغت عشي ليلة هاج ريحها   عواصف من فتك زوابع من رعب
وجندل عاتي الموت افراخ منزلي   فلم يبق من عش ولم يبق من سرب
فيممت اوفى الخلق اهلا ومرحبا   وقمت بروض « للثريا » على الرحب
كستني عطفا في ظلال حنانها   وامنا وخير القوت من دسم الحب
ارتل من مزمور داود وابنه   نشيد سليمان الصبابة والحب
عزاء فهذي الدار تفني قطينها   وما دام غير الطيب الروح والصلب
عزاء وسلونا فما الفضل زائل   يخلده التاريخ في منزل الكتب

تسآلني الورقاء عن حي عربنا   اجبت بوادي التيم من ربعه الخصب (١)
ومن شط صور جاء ربع اميمها   طموحا كاسلاف الى الشاطىء الغربي (٢)
تعالي نزر عند الصبيحة هيكلا   يضم شذي « الاقحوانة » والحب (٣)
تعالي معي نرقى على سابح السهى   فاني ارى وجه الحبيبة في الشهب
واسمع ما بين الملائك صوتها   رخيما يناديني الى المنهل العذب
اقبلها لو يعلم الشوق لوعتي !!   واودعها والقلب بين يدي ربي
روائع تذكار الحبيبة جمة   اذا شمتها عادت مآقي للسكب
تخيلنها في حضن مريم امها   تحادث احبابا ورهطا من الصحب
فماسحت الخنسآء دمعا كادمعي   ولا ناح مثلي شاعر العجم والعرب

(١) والد الفقيدة اسكندر داود ـ رحمه الله ـ من راشيا الوادي . (٢) والدتها المرحومة مريم حاطوم من مدينة صور اصلا (٣) « الاقحوانة » لقب قرينتي الشعري .

هوستن ـ امريكا   سليمان داود

اشعته وعلى البحر سفن نورانية اخذ يعبر عليها سفينة سفينة حتى رأى حملة العرش من الكروبين قال ابو يزيد « فلما علم سبحانه وتعالى مني صدق الارادة في القصد ناداني اليه ثم سقاني شربة من عين اللطف بكأس الانس .. ثم قابل روح محمد فسلم عليه واوصاه ...» تلك خيوط من معراج البسطامي وقد قيل عنه ان ابا يزيد يذكر ما يذكر على لسان الحال لا الواقع ليقرب الى الوجدان بعض احاسيسه ولا نملك الحكم هنا على احوال القوم انما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى الرجل .

ان حديثا نبويا ـ كحديث المعراج ـ يترك دويه في الاداب العربية والفارسية والاوربية وغيرها لجدير ان نفسح له اطيب مكان ، في رسالة تتناول الناحية الادبية في احاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

الفيوم ـ دار المعلمات   محمد رجب البيومي

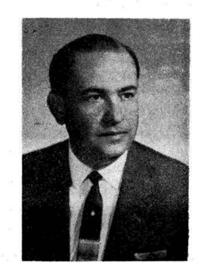
الى طفل الامس

•

فـــؤاد الخشـــن

•

الشويفات ـ لبنـــان



يا ابا الهول تكلم
ليقــــال
ان ما يعلمه الاخوان تعلم !
شارك الجلاس بالصخب والوان الجدال ! ..
لا تقض الليل في صمت ضبابي وفي تقطير آل
شاردا في غيهب الوهم على غيم الخيال
انت يا من يبتني من ظلمة اليأس لعينيه جدارا
رغم ما اعطيت مما يسعد الناس الصفارا
رجفة المـأســـاة في صوتك ، في البحة
هـــم يتـــوارى
وخطوط الحزن في جبهتك السمراء اثلام
وتحفـــير ظـــــلال
تترك الناس لما يشجيك يمضون على الفسؤال !

ان اردت العيش صحوا
وربيعا مسكر الطيب فصدق
كل ما تسمع عن فيض المحبه
من قلوب الناس ، عن طهر الزهر !
خلف اسوار النعيم المنتظر
عطل الحدس وضوء العقل واترك
لقوى القلب العنان
لتعيش العمر في وهم الجنان
قبل ان تفجع بالناس وتقضي
فجرك الفضي في الشك الممض
ناسجا من دمك الثلجي ليلا
كالح الوجــه وغربه
تربة تخنق فيها
كل يوم الف ايمان ورغبه !

ايها الراقد في كهف كثيف الظل قطبي الرقاد
افتح الاجفان وامسح
عن سنا عينيك غيمات السواد
وتحد اليأس وانشر
للفتوحات شراع السندباد
ربما عدت الى ايمانك الحلو ، وعاد
لك صحو الامل
بعد ما ذقت لظى الشك وسهد المقل
تقطع الايام ترحـــالا ..
بمصباح « ديوجين » تجول
باحثا عن واحد في الناس
يعني ما يقــول !

بارحوا الخندق صامتين .. وتحركت اقدامهم في خطى مرهقة .. وبعد خطوات قليلة انطرحوا على ظهورهم فوق الرمال .. شبكوا راحاتهم تحت رؤوسهم .. وشخصوا بأبصارهم في الفضاء المشف رغم عتمة المساء ..

كانوا ستة .. انتهت نوبة حراستهم .. فزايلوا الخندق يلتمسون نسمة رطبة .. بعد نهار خانق راكد لم يتنسموا فيه نسمة واحدة منعشة .

احسوا بعد فترة بسخونة الرمال واختناق الجو .. لكن واحدا منهم لم يتقلقل .. فأجسادهم مكدودة من طول الوقوف خلف مدافعهم .. واعماقهم تموج بالحيرة .. وليس ثمة مكان اخر يجدون فيه ما يشتهون ..

تقاربت رؤوس بعضهم .... وشاعت بينهم همسات خافتة ، ما لبثت ان تلاشت في جوف الصمت من جديد ..

بدا الليل مسيرته في موكب من محاق ونجوم قليلة .. فتضاعفت كآبة الصمت بانضمام الوحشة اليه .. غير ان نسمات رطبة اخذت تهب من بعيد .. فانتعش المستلقون على الرمال .. وسرت حركة هادئة بينهم .. احنى واحد ساقيه .. واوسع اخر بينهما .. بينما رفع ثالث راحتيه من تحت رأسه ليشبكهما فوق صدره .. في حين اكتفى الباقون بانسياب الهواء البارد الى صدورهم .. واختلاس نظرات خاطفة .. افصحت عن الحيرة والقلق اللذين تنضغط تحتهما اعصابهم .

زادت حدة السكون اثر انعدام الحركة التي شملتهم .. ولولا عيونهم التي استمرت تحتوي الفراغ المظلم، لبدا انهم انقلبوا يغطون في نوم عميق ..

مرت سحابة قاتمة حجبت نجمة كانت تتعلق بها عينا امين .. فتحول عنها الى رفاقه .. ورماهم بنظرة عاجلة .. واذ رآهم غارقين في صمتهم وحملقتهم .. رجع يبحث عن نجمته المفقودة خلف السحابة القاتمة التي زحفت عليها .

بعد لحظات انقلب امين على جنبه .. رفع رأسه وشمل الاخرين بنظرة متأنية .. ابصارهم تسبح في الفضاء كما لو كانوا يحلمون بشيء .. فهل اختنق في داخلهم ما كان يمتص فكرهم ؟..

وداخل أمين الاشفاق على رفاقه ، وعيناه ما برحتا جاثيتين فوقهم .. لم لا يبوح لهم بالسر الذي يشغلهم البحث عنه فينتشلهم مما يعانون ؟.

وهمت شفتاه ان تتحركا ، لولا ان اسرع فأطبقهما بقوة .. ماذا يقول



بقلم اسماعيل علي اسماعيل

لهم ؟.. قد يستطيع ان يروي ما وقع كله .. ويخبرهم عمن دبره ونفذه .. ويشرح لم اختير لتنفيذه هذا المكان دون غيره .. لكن بم يفسر سبب وقوعه ؟.. حقيقة هو يعرف السبب ... لكن هل سيقنع به رفاقه وهو نفسه وبعد كل ما حدث يكاد لا يقتنع به ..؟

رجع امين يطرح رأسه على الرمال .. ويرسل بصره الى الفضاء ... معاودا البحث عن نجمته المفقودة وراء السحابة التي امتدت فوقها ..



بعد قليل .. ارتفع صوت حلمي سائلا :

— هل يمكن ان يتكرر الحادث الليلة للمرة الرابعة ؟..

انتفض الرفاق قاعدين، وحاصروا حلمي بنظراتهم . وكان أمين اخر من نهض فيهم .. وحين واجه حلمي بنظراته .. لم يكن في عينيه فزع رفاقه ولا تساؤلهم ..

مرت فترة وجيزة ، تمتم امين بعدها بخفوت :

— ما المانع ؟..

اتجه الرفاق اليه .. واخذوا يحدجونه باستنكار .. في حين بقي هو متشاغلا عنهم بالنظر الى السحابة القاتمة التي وارت عنه نجمته ..

ورجع حلمي يسأل :

— وما الذي سنفعله لو تكرر الحادث الليلة ؟..

وبهدوء غريب اجاب امين :

— وماذا فعلنا حين تكرر للمرة الثانية والثالثة ؟

وجم المتحلقون حوله .. وانتظر امين ان يخرج احدهم عن جموده ، ويعلق بكلمة فيتصل الحديث بينهم .. الا ان احدا لم يتكلم ...

وضاق أمين بصمت رفاقه .. ومضى يحدق فيهم بنظرة حادة فاحصة .. ماذا اصابكم ..؟ عمدت الى اثارتكم حتى يستمر نقاشكم .. فأغافل في غمرته خوفي وترددي .. واطلق ما احتبسه في صدري ... فلم خرستم ..؟

وارتطمت عينا امين بوجه حلمي ، فتشبثتا به .. لم سكت انت الاخر ؟ سألتني واجبتك .. فاسأل ثانية وثالثة .. لا تتوقف عن الكلام حتى اظل احتويك بناظري .. فأنت وحدك الذي تعيد الي صورة صفوت ... برغم الفارق بينكما .. اراه دائما فيك .. ارى وجهه الاسمر المندى دوما بحبات العرق .. ومقلتيه السوداوين القلقتين .. وبسمته

الهادئة المتأرجحة .. لا تسكت .. حتى في سكوتك مثله .. كان هو الاخر يكثر الصمت .. وفجأة يباغتنا بسؤال يفجر دهشتنا ويحرك سكوننا ..

واغمض امين عينيه والالم يعتصر قلبه .. وقفزت الى مخيلته صورة الليلة الكئيبة .. ليلتها كان الظلام يحتوي الفراغ .. والصمت يتراكم في كل الارجاء .. وكان فوق المرتفع الرملي الذي يتقدم الخندق .. يقبع خلف مدفعه .. ويحاول اختراق سياج الصمت والظلام بسمعه وبصره .. وكان صفوت على مقربة منه .. صامتا كعادته .. تفتر شفتاه بين الحين والحين عن بسمة او همسة ثم نزل صفوت ليقضي حاجته .. ولم يصعد الى مكانه ثانية .. فقد هوت على الموقع قذيفة مباغتة من جانب العدو .. ابقته في السفح اشلاء ممزقة ..

امتد صوت ابراهيم يقطع الصمت :

ــ الغريب ان العدو ساكت ..

فغمغم عراقي :

ــ لا بد انه يبيت لعدوان جديد .

وهتف سليم بغيظ :

ــ وهل نحن الذين خطفناهم ؟

اجاب بدوي في شبه حسرة :

ــ ليتنا نعرف من خطفهم .. ولماذا اختار هذا المكان بالذات ليقتلهم فيه؟

ــ الغريب انه نفس المكان الذي استشهد فيه صفوت ..

ــ هذا ما يزيد الامر غموضا .. فكيف تفادى الذي خطفهم حقل الالغام ؟..

ويسيطر الصمت برهة .. ثم يحني عراقي جذعه الى الامام ... كأنما يريد ان ينفذ الى اذان رفاقه، ويهمس :

ــ لماذا لا يكونون قد جاءوا بأنفسهم لينتحروا حيث مات صفوت؟

ويضجون بالضحك .. ويصيح سليم بحنق بعدما يغالب ضحكه :

ــ يبدو اننا سنقلب الموضوع الى مزاح ..

ويقول بدوي :

خير من الحيرة التي لن تجدي .

ويسارع امين قائلا :

ــ لست اوافقك .. فما حدث لا يمكن السكوت عليه ..

ويدمدم بدوي :

ــ صحيح .. لكننا لم نصل بعد الى تفسير .. وانت نفسك رغم ان الحوادث كلها وقعت اثناء نوبات حراستك لم تستطع التعليق بشيء !

وتتوه افكار امين .. وتظل عيناه ترمقان رفاقه الذين راحوا يتطلعون اليه من وراء صمتهم وترقبهم ... هل ينتهز هذه الفرصة ويكشف لهم ما يخبئه عنهم ؟.. ماذا لو فعل ..؟ قد لا يصدقونه لكنهم لن يسخروا منه .. فماذا يخيفه من مكاشفتهم؟

وينتبه امين على صوت بدوي :

ــ ها انت ساكت ولم تجد ما ترد به ..

وتنفرج شفتا امين .. وينساب صوته خافتا لا يكاد يسمع :

ــ الحقيقة اني اعرف كل شيء عما وقع ..

وتنطلق الاصوات تردد في استغراب :

ــ ماذا ؟!..

ــ ولم تكتمه ؟

ــ القائد سألك .. ونحن ..

ــ واكدت انك لا تعرف شيئا ..

وتهدأ الاصوات ... فيردف امين وهو يتحاشى النظر الى رفاقه :

ــ خشيت الا تصدقوني .. وتقفوا في طريقي ..

وتتملكهم الدهشة فلا يستطيعون النطق بكلمة .. ويلزمون الصمت .. وبعد هنيهة يستأنف امين كلامه :

ــ كنت ليلتها فوق المرتفع الرملي .. واذ بي المح قريبا مني .. ثلة من الاطياف وسط دائرة من الضوء .

وقاطعته اصوات :

ــ كنت نائما اذن ..

واحتد امين :

ــ هذا ما كنت اخشى سماعه .. ولهذا لم اصارحكم بشيء .. انا لم اكن نائما ..

ويسكت امين وانفاسه تتلاحق .. ويشرد فكره .. هل حقيقة لم يكن وقتها نائما .. لو انه كان نائما لكان ما رآه حلما .. فهل يمكن للحلم أن يخلف في نفسه كل ذلك الاثر ؟. وقتها لم يهتم بالتيقن من كنه ما راى .. لكنه الان مطوق بأسئلة رفاقه .. فماذا يقول لهم ؟..

وجاءه صوت بدوي هادئا :

ــ اكمل يا امين ..

وعاد امين يقول وفي صوته نبرة توسل :

ــ صدقوني .. انا لم اكن نائما .. خيل لي بادىء الامر ان الضوء لفانوس كاشف .. ففزعت .. وهممت بتنبيه بقية الرفاق لكنني عجزت عن الحركة والنطق .. وبقيت عيناي لا تتحولان عن ثلة الاطياف . وفيما انا اتفرس فيهم .. لمحت بينهم طيف صفوت ..

وبصوت واحد ردد المتحلقون حوله :

ــ صفوت ؟!..

واستطرد امين وقد ارتفع صوته قليلا :

ــ نعم ... صفوت بعينه ... والاخرون لم اتعرف عليهم من ملامحهم .. المهم .. فهمت من اشارات طيف صفوت انه يصف لهم كيف باغتته القذيفة ومزقته .. وانه يوعز اليهم بالانقضاض على العدو واختطاف بعض جنوده لقتلهم حيث مات ..

وهتوا بدهشة :

ــ الطيف ؟!

واسترسل امين :

ــ نعم .. وفهمت ايضا من ايماءات الاخرين انهم يوافقونه ..

وسأل بدوي في حيرة :

ــ وبعد ؟!..

واتسعت عينا امين .. بماذا يجيب ؟.. وصف لهم ما رآه ... وما اعقبه ، كيف يحكيه ؟

ويتشله من حيرته صـــــوت الجالس قبالته وهو يتساءل :

ــ هل معنى ذلك ان الارواح ؟.. لكن .. اعني كيف ؟

وقبل ان يفصح عما يريد قوله ، يجنح للسكوت ..

وتمر دقائق من الصمت .. ثـم يخرج صوت بدوي :

ــ انا سمعت ان الروح تظـــل تحوم حول المكان الذي اغتيلت فيـه حتى يؤخذ بالثأر لها.. في الصعيد يقولون ذلك .. لكن هل يمكن للروح ان تثار لنفسها بنفسها ؟

ولا يعقب واحد بكلمة .. فقط ، تبقى عيونهم تتلاقى وتتباعد .... والصمت جاثم فوقهم .. وفجأة يهتف حلمي :

ــ اذا كان الامر كذلك فلمـاذا لا نقوم نحن بهذه المهمة ؟

وتدهم امين نشوة مباغتة .... نفس ما ردده ليلتها بعد ان توارت عنه ثلة الاطياف واختفت دائـرة الضوء .. لم يكـن اذن متهورا ولا مجنونا ..

وهمهمت اصوات :

ــ تقصد ..

ويسرع حلمي قائلا :

ــ نتسلل الى مواقع العدو ونخطف من جنوده من نقدر عليه ..

ويستفسر بدوي :

ــ وكيف نفعل ذلك ؟ ومتى ؟

ويوضح أمين والاشراق يغمـــــر وجهه :

ــ في الهزيع الاخير من الليل .. اثناء نوبـة حراستي .. المهم الا يعرف الاخرون ذلك .. فقد يعوقنا بعضهم عن اتمامه ..

ويطويهم الصمت فترة غير قصيرة يسأل بعدها عراقي :

ــ لكننا لم نعرف بعد .. هل مـا رآه امين حلما كان ام حقيقة ؟ وهل الاطياف هي التي فعلت كل ذلـــك ام غيرها ؟..

شراع ولا مرسى

أخمس وعشرون يـــا قلب مرت	ومـــا كان مرساي شطا أمين
أمرساي .. وقـــع حروفك واه	أمـــا آن للزيف ان يستكـين
فانـي مللـت حيـــاة الرحيـل	وفوضى الضياع وسحر الحنين
أنـــا مـــا رسوت علـى شاطيء	شراعا يهيـــم وقلبـــا طعـين
أمـــا آن للـــدرب أن ينتهي	وآن لاشرعتـــي أن تلـــين
أخمس وعشرون صـوت يـدوي	فيسحقني فـــي سكون مهين
وما كنت أخشى ازدحام السنين	ولا رجـــع ذاك النداء الحزين
ولست أبالـــي بثقـل الضباب	سواء بـــدا راحلا او رهيـن
لـو انـك كنـت علـى زورقي	وزاحمت عبـرك مـــوج السنين
فمـــا زلت تسكن فـــي خافقي	ومـــا زلت أنت هـــواي الدفين

دمشق

سلافة العامري

ويرد امين ومسحة الاشراق مـا تزال تعلو وجهه :

ــ الاطياف او غيرها .. مــاذا يهم ؟ المهم اننا نواصل المهمة .... ويكفي اننا سنمارس مهمتنا كجنود ... السنا هنـــا اصلا كي نقاتـل ؟ اذن فلنمارس مهمتنا ولو كانـــت ممارستنا لها بهذا الشكل تخـالف اللوائح التي تحكمنا ..

وعلق بدوي :

ــ اننا بهذا نحقق الاستقرار لروح صفوت ..

وعقب امين وقد عاد الخفوت الى صوته :

ــ ليس هذا فقط .. صحيح ان موت صفوت ترك جرحا في قلوبنـا .. لكن اقدامنا على تنفيذ ما اتفقنا عليه سيحقق الكثير .. صدقوني .. لقد ميع طـــول الانتظار والترقب رغبتنا في ان نحلم ونفكر .. ومـــا سوف نفعله سيفتح شهيتنا .. فنفكر .. ونحلم .. فحين تكون ماضين، اليهم سنتجاوز الخوف ونفكر فيمـا ينبغي علينا عمله .. ونحلم بالتوفيق .. وفي طريق عودتنا .. ســوف يتحول زحفنا الى قفزات نشوة ... ونحلم اننا نطير عائدين الى بلادنا .

ويسكت امين .. فيسأل عراقي متعجلا :

ــ من منا سيبدأ الليلة ؟

وتعلو بسمة عريضة شفتي امين وهو يرد على رفيقه :

ــ جميعنا .. ثلاثة للمقدمة ... واثنان لتغطية التقدم والانسحاب . والسادس يبقـى هنا للحراسة .. وقبل بدء العملية سوف اشرح لكم كيف تتقدمون مـــن موقعهـم .. فحتما ضاعفوا الحراسة بعد توالي الاختطاف ..

وتمتد ايدي الرفاق لتتعانق ... وترتجف شفاههـم بالبسمات .... ويتفجر في عيونهم بريق يشع فـي ظلمة الليل .. وهم يخطون في نشوة عائدين الى الخندق .

القاهرة اسماعيل علي اسماعيل



ابراهيم ناجي

بين ناجي ولامرتين ودي موسيه

بقلم مصطفى عبد الرحمن

* * *

يمتاز الشعر الغنائي بسلامة الاسلوب وروعة الخيال والموسيقيةوالرقة ولا يلزم ان يكون الشعر الغنائي شعرا يغنى بل انه سمي كذلك لعذوبته ورقة صياغته .

ومن بين شعراء هذا المذهب الشاعر المرحوم الدكتور ابراهيم ناجي والشاعران الفرنسيان الكبيران الفونس دي لامرتين والفريد دي موسيه بل لعلهما اكبر شعرائه اذا استثنيا فيكتور هيجو .

ان شاعرنا ناجي يشبه كثيرا هذين الشاعرين الفرنسيين كل في ناحية من نواحيه وان كان يلتقيان في بعض اغراض شعرهما فدي موسيه ولامرتين كلاهما شاعر غنائي عذب الاحساس .. رقيق الشعور مرهف الوجدان .. وكلاهما احب ففشل ولكن لامرتين آمل في وجه الله اما دي موسيه فقد يئس من كل شيء كل اليأس ..

اما عن لامرتين فناجي يشبهه في جمال وصفه للطبيعة ورقة تعبيره عنها وعذوبة تصويره لمجاليها ومرائيها .. تلك الطبيعة التي كثيرا ما يلجأ اليها كي يجد عند حنوها السلوى كما كان يفعل زميله لامرتين وهذا الشاعر الاخير كان يجد السلوى عند الطبيعة تارة .. وتارة يفتقدها . انظر الى قولهما حينما لجآ الى الطبيعة فلم تتح لهما السلوى ..

.. قال ناجي :

بربك ايها الانوار ماذا   صنعت بساهر ألف الظلاما
بربك ايها الامواج ظلت   على الشطآن ترتطم ارتطاما

.. وقال لامرتين :

ارنو الى الارض روحا هائما قلما   لا يستقر من البلوى على حال
وليس في صور الاكوان قاطبة   ما ينقذ القلب من هم وبلبال

الا ترى معي ان الشاعرين الكبيرين في تلك الابيات كادا يلتقيان في كل شيء حتى في صميم المعنى الخاص .. انك حينما تقرأ لناجي او لامرتين بعض ابيات في الوصف تلمس ما بلغه هذان الشاعران من دقة في التصوير حينما يتجسم امامك المنظر الموصوف صورة حية نابضة فتظن انك انما تراها رأى العين .. اسمعهما يقولان في الوصف :

.. قال ناجي :

الا ان ضوء البدر احسان محسن   له اينما يسرى تفضل منعم
يطوف به الناظر المتبسم   وينشره في الدارس المتهدم
ويا ربما يخشى الخميلة ضاحكا   فتحلم في جو من السحر مبهم

.. وقال لامرتين :

كم يهدر النهر في واديه منطلقا   وفوق امواجه وشي من الزبد
لقد تلوى على الوادي وسار الى   حيث اختفى مخدرا فيظلمة الابد
وفي البحيرة ماء راح في سنة   قد لفه عبقري الصمت في برد

ان كل حكمة في هذه الابيات تكاد تنطق بوجه الشبه . ان ناجي شاعر مرهف الشعور رقيق الاحساس .. ذي موسيقية خلابة يهتم بالناحية الوجدانية في شعره ويكثر القول فيها ويلون انغامه بالالوان العاطفية الثائرة ويكسوها بطابع من الشجى والاسى ويملأ قصائده بأنات حزن ونبرات من الالم الدفين .. انه دائما في قصائده حبه حزين يائس في حبه لا أمل له في هناءة او سعادة مثل دي موسيه :

اسمعه يقول :

لا امامي غد ولا عن يميني   امل ضاحك ولا عن شمالى
يا هواها باللهبعد انحدار الشمس   ماذا تعلقي بالظلال

ويقول دي موسيه :

انا لا اهتف يوما بالسعادة   انا لا انشد للمجد لحونا
وتراني ما بالامي هواده   لا اغنيها من الشعر فنونا

ويقول ناجي :

ايها الوكر اذا طار الاليف   لا يرى الاخر معنى للسماء
ويرى الايام صفوا كالخريف   نائحات كرياح الصحراء

ويقول دي موسيه :

انت يا من حول قلبي عاكفة   ايها الطيف الملح النهم
عندما تقصف رياح عاصفة   لا ترى في الرمل كف ترقم

وكلاهما هنا يائس غاية اليأس لا يجد فائدة ولا امل من الحياة او الكلام ..

صاغ اشعار لامرتين ودي موسيه شعرا عربيا الشاعر المعروف العوضي الوكيل .

قصيدة حب الى بلادي

يا حبيبي ...
دع هـواك اليـوم عنـي لست أهفـو لعناق
دع غنـاك الآن انـي لست أصبو لاحتـراق
غير ماء من فراتي العـذب والحلو المـذاق
دجلة السمراء توحي ألـف حـب واشتيـاق

لست أحيـا لغرام .. أنـا أحيـا لبلادي
حبها خمري المصفى .. وشرابي .. وهو زادي
وهيامي ... ومنـى نفسي ، وسؤلـي ومرادي
واغاريدي .. وشعري .. واختلاجات فؤادي !

شمسها مـا أبـدع الخلاق ربـي أي شمس
ارضهـا تبـر موشـى باللآلىء والدمقس
ماؤها الرقراق شهـد سلسل عـذب لنفسي
سحرها سحر حـلال مبرأ مـن كـل رجس
يا حبيبي ...
لا تلمني لو رهنت القلب يومـا فـي هواهـا
أو حملت السيف حبـا ودفاعا عـن حماها
غايتي ارجو لهـا مجـدا ومرفوعا لسواهـا
لا تلمني .. أنـا أحيـا لرباها وسماهـا

هي عندي خير حب .. خيـر شوق ونشيد
صغت فيها من دمائي كـل شعري وقصيدي
يا حبيبي .. انـا أصبو لغـد حلـو جديد
عربي .. سرمدي .. مشرق . زاه سعيـد !

والمنـى ان استعيد (القـدس) أرض الطيبين
وأميت الغاصب الغـدار والمسـخ اللعيـن
وأعيـد الحـق للايتـام والشعب الحزيـن
عندها نبني لنا بيتا سعيـدا فـي الظـلال

عندها نبني لنـا بيتـا سعيدا فـي الظلال
مـن كـروم العنب الحلـو شهيا وزلال
نصنع العمـر ابتهاجـا وانطلاقا واحتفال
عندمـا يخضر عشب ونخيـل .. وتـلال !

ووفاء الحب أن تسمـو نفـوس العاشقين
دعك مني .. أنـا لا اعرف غيـر النازحين
يمضغون الحجـر الـذاوي بأرضي جائعين
ذاك همي .. ان يعود الشعب رغـم الغاصبين
يا حبيبي ...
اللئيـم النـذل يغتـال شبابـي وصبايـا
يلعق الجـرح ويمشي فـوق اشلاء الضحايا
يـا لعهر المسخ يا وغـدا دنيئـا يـا خطايـا
نبذتـه الامـم الحـرة نبـذا والبرايـا

أترى أسكت عـن هضم حقـوق الضعفـاء !
أترى أخشى عـدوي ورصاص الغربـاء !
ينبض الثـأر لهيبا فـي عروقـي ودمائي
في غد ، والنصر آت.. والغد (القدس) رجائي !

بغداد — خالد الخزرجي

وبالرغم من كون ناجي شاعرا ذا خيال بارع جميل الا انه كزميله واقعي يرى الحياة علـى حقيقتها لا ينخدع بزخرفها .. ولا يلهيه ظاهرها عن غدرها ولا ننسى مـا لناجي ولامرتين مـــن نزوع الـى استعمال المجازات والاستعارات ..

.. يقول ناجي :

يا شاطىء الاحزان كم من موجة — هبها ارتطامه موجـة وصداهـا

.. ويقول لامرتين :

يا موكب الفجر هل لي فيك منفسح — يا موكب الفجر هل لي موضع فيكا

فكلاهما قد استعمل الكنايات فالاول ذكـر شاطىء الاحزان وذكر الآخر موكب الفجر ..

ان ناجي شاعر غنائي بمعنى الكلمة بـل انه يشبـه كثيرا كما اسلفنا ابرز اثنين من شعراء الغناء ونعني بهما لامرتين ودي موسيه ..

واخيرا اننا نعلم سبب الحزن واليأس مـن الحب عند لامرتين ودي موسيه لقـد احب الاول ففشل امـا الثاني فقد خانته زوجته والذي لا جدل فيـه ان حياة ناجي تنطوي على مأساة كبيرة لا يعلمها احد ..

لقد كان ناجي يعيش في المرحلة التي كانت تمر بها الحياة الادبية فـي مصر فـي الفترة مـا بـين ١٩٢٥ ـ ١٩٤٥ ومن طبيعة المرحلـة الرومانسية انها تدفـع الشعراء الى التعبير عن مشاعر الحزن والالم بعيدا عـن الواقع الملموس فرارا من الاحساس بوطأته .. ترى اخذ ناجي بفلسفة دي موسيه التي تؤكد ان لا شيء في العالم يجعل من الشاعر فنانا عظيما مثل الالم العظيم فعاش في اشعاره التي رددها يائسا محـزون الفؤاد مستطـار القلب ..

القاهرة — مصطفى عبد الرحمن


يوسف عبد المسيح ثروة

مسرح اوغست ستريندبرغ

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

اوغست ستريندبرغ (١٨٤٩ – ١٩١٢) اشتهر في كل فن من فنون الادب وفروع العلم ، وعمل في كل مسلك من مسالك الحياة ، ولكن شهرته التي تجاوزت حدود بلده ، السويد ، وضعته في صدارة كتاب المسرح ، في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، لا في اوروبا فحسب بل في العالم ايضا . فكيف تيسر له ذلك وقد كانت الاقدار له بالمرصاد ، اذ عرف الفاقة والحرمان منذ حداثة سنه ، واذ أفلس والده ثم ماتت والدته وهو في الثالثة عشرة من عمره ؟...

ان الحديث عن طفولته مضن مربك محزن ، وقد كتب العديد من الكتاب في هذا الصدد ، فقوموا خلفية هذا الكاتب العاثر الحظ تقويما موضوعيا ، فيه الكثير من الافاضة والتفصيل ، ولما كنا لا نريد ان نخوض المخاضة نفسها ، لان ذلك يستغرق منا وقتا نحن في مسيس الحاجة اليه نرانا مضطرين الى تجاوز هذا العهد من حياة ستريندبرغ للدخول في صميم موضوعنا ... الا وهو دراسة فنه المسرحي من خلال مسرحيته غير المعروفة للقارىء العربي ، اعني مسرحيته "عيد الفصح".

وقبل ان نفعل ذلك لا بد من المامة بفن ستريندبرغ – على ضوء اراء نقاد المسرح المعروفين ورأي ستريندبرغ نفسه في مسرحه والتقلبات الفكرية التي تعاقبت على ذهنية الكاتب وعقليته ...

يعرف ستريندبرغ قبل كل شيء بانه من الرواد الاوائل للمذهب الطبيعي والى هذا المنصب تعود مسرحيتاه «الاب» و «الآنسة جوليا»، اما مسرحية « عيد الفصح » فهي اكثر مسرحياته واقعية (١) . والاختلاف بين وطس وغيره من النقاد واضح اذ انه يعد « الاب » و « الآنسة جوليا » من المذهب الواقعي ، بينما يعدها النقاد الآخرون من المذهب الطبيعي ، ومقدمة ستريندبرغ نفسه « للآنسة جوليا » يدحض هذا الادعاء . فهل من تشابه بين المذهبين حتى يلتبس الامر على وطس فيما التبس عليه ؟ يرى جون رسل تايلر ان الواقعية هي أقل تطرفا من الطبيعية ولكنها شكل من اشكال الطبيعية (٢) . وهو في الوقت نفسه يعد المدرسة الطبيعية مختلفة كل الاختلاف عن الواقعية لانها تصوير دقيق للواقع يضم بين ثناياه دقائقه وتفصيلاته مهما تكن هذه الدقائق والتفصيلات وحشية مرعبة مفزعة مقذعة ... بينما الواقعية لا تهتم بهذه التفاصيل كل هذا الاهتمام ، فهي على أهتمامها بالشجرة تهتم بالغابة ايضا لان عزل الشجرة عن الغابة يضيع علينا صلتها بالغابة وبالتالي نكون قد ابتعدنا عن الشجرة والغابة معا . على ان ذلك لا يعني ان التفصيلات هي كل شيء في الطبيعة وقد راى مدى خطر هذه التفاصيل على مستقبل المذهب « زولا » ابو الطبيعة ولذلك قال في « اني اتهم » : ان التدقيق في واقعنا اليوم ينبغي ان يتبع بنظرة على تطورات الغد (٣) . ومع ذلك فان الطبيعية في راي « فشر » مذهب يحتمل الانتكاس كما حدث بالقياس الى هوبتمان وستريندبرغ (٤) .

الا ان ستريندبرغ يرى في مذهبه رأيا اخر غير آراء هؤلاء فهو يقول في مقدمة مسرحية « الآنسة جوليا » : « الطبيعي الغى الخطيئة ... لكن عواقب العمل (الفعل) – العقاب ، السجن او الخوف من ذلك هذه الاشياء لا يستطيع الطبيعي ازالتها » (٥) . ومن ثم – فان الغاء الاثم لا ينفي عواقبه التي تنبثق تلقائيا منه ، ومع ذلك فان السعادة على حد قول ستريندبرغ – هي الفرض الوحيد من الطبيعية. ومن هنا كان التناقض حتميا بين التراث الروماني المفعم بالاسى والضعف والانحلال ، وبين الطبيعية التي تنشد اناسا اصحاء اقوياء، كنماذج صالحة ، جديرة بالعمل الفني في عصر أنحلال الرومانسية ان الميزة الرئيسية في مسرح ستريندبرغ هي تكثيف الصراع بين الارادات المتباينة ، وحصرها بين (شخص واحد يصطرع – في عقله – مع شخص آخر) (٦) . وهذا يعني في المدى المسرحي – فصم العرى مع العلاقات التقليدية وخلق اوضاع جديدة تتسم بعلاقات غير العلاقات التقليدية التي تدفعها القيم الفردية المتبلورة في المشاكل الاخلاقية الكبرى ... وذوبان كل هذه القضايا في الجو المحموم من الانحطاط العام المسيطر على الطبقات التي لم يعد لها مكان تحت الشمس ، كالارستقراطية التي فقدت مقومات وجودها ، والبرجوازية الكبيرة التي حلت محلها والطبقة المتأرجحة التي هي لا الى هؤلاء ولا الى اولئك ... هذا الذوبان يوحي لنا بان (ستريندبرغ ينتمي الى القرن العشرين بقدر ما ينتمي الى القرن التاسع عشر ، فهو مسجل حسي للزلازل ، يستطيع ان يشعر بمقدم القرن العشرين ، بما اخذ يتجمع في جوه من بغضاء ووحشية وعودة الى همجية الجاهلية وشريعة الغاب) . (٧)

ففي مسرحية « الآنسة جوليا » نجد انهيار الارستقراطية تاما ، بانهيار جوليا نفسها وتسليمها لاعز ما تملك الى خادمها ... الذي يجفل لا من صوت سيده بل من رؤية حذائه .. ان جوليا ارستقراطية ضعيفة لانها امرأة عاطفية سقطت عنها الاقنعة حين وجدت نفسها امام رجل كله فحولة ، وهكذا اصبح جان هو الارستقراطي ، واصبحت جوليا هي الخادم المطيعة ، بل العشيقة المتهالكة على جان تهالك الفراشة على السراج الوهاج فالارستقراطية حين تحاصر في شخص المرأة من قبل قوى متفوقة لا تلبث ان تنهار سريعا ... لسبب واحد معقول وهو ان الارستقراطية قناع غير انساني ، وان الوجه الحقيقي للانسانية قوة جبارة تستطيع متى اهتدت بهدى فطرتها ، تمزيق هذا القناع شر ممزق . وهكذا كان سقوط جوليا امرا محتوما لانه امر طبيعي متى ما ادركنا الجانب الانساني من المسألة .

ومع ذلك فان هذا السقوط ليس سوى صحوة ما ان تلاشت حتى عادت غفوتها اليها . واذا بها لا ترى طريقا غير الانتحار تخلصا من العار الذي ارتكبته على حين غفلة من الزمن . وانتحار جوليا هو انتقام للارستقراطية من نفسها .. ومعنى ذلك ان الارستقراطية .. في المفهوم (النبيل) من الكلمة في الطريق الى الانحلال في ضباب الجحيم

الفاغر فمه في فساد العلاقات ، في اضمحلال ما يمكن ان يسمى تراثا ، في تصدع الكيان الاجتماعي في تمزق الصلات في مختلف مناحيها واصنافها . في الانحدار السريع المفجع الى آلية القرن العشرين هذا الانحدار الذي كتب عنه يوجين اونييل مسرحياته .

ومن الصلات الارستقراطية المنهارة يمكننا ان ننتقل الى الصلات المتوترة الفظيعة في الاسرة البرجوازية الصغيرة في مسرحية «الاب» ومع ان الاب صورة طبق الاصل عن سترندبرغ نفسه ، فان المشاكل العائلية التي لا يمكن ان تجد لها حلا ، لوجود الصراع الابدي بين الذكر والانثى وارتفاع شأن المرأة في المجتمع الجديد ، وبسبب من تخلخل العائلة البرجوازية بسبب سوء تنظيمها الاجتماعي ، كل هذه الامور مجتمعة تجعل الاب من الناحية المسرحية تعبيرا صادقا امينا عن وحدة المجتمع الاوروبي الجديد التكوين ، او بالحري خليتها التي تسمى (عائلة) وهي في حقيقة الامر ، كما بين ذلك بصفاء عجيب ، سترندبرغ ، الكاتب الملهم ـ ليست الا جمعا اعتباطيا لا شتات لا يمكن لاي نظام يستند الى التفاوت الطبقي ـ ان يلم شملها ويبعث فيها الحياة ، ويخلق منها وحدة عضوية ، منسجمة ، متجانسة ، تكون في حقيقة الواقع خلية حية في جسم المجتمع الحي ..

ومع ان وحشية المرأة في « الاب » مبالغ فيها ، الا ان عوامل الصدق والامانة والاخلاص للواقع ، بارزة تسحر كل من يشهدها او يقرؤها ـ باصالتها وحيوية موضوعيتها وقدرتها الاقناعية .. اما في « عيد الفصح » وهي مسرحية كتبها بعد « الاب » و « الآنسة جوليا » بمدى طويل من الزمن ... فان عوامل الانفعال العاطفي والاضطراب النفسي تكون قد تلاشت ، بعد تلك الحماسة التي كان يلجأ اليها سترندبرغ في مسرحياته المبكرة نوعا ما ليأخذ مكانها هدوء ساكن ساج يميل الى شيء من البرود احيانا ، والى شيء من اللامبالاة احيانا اخرى ..

واذا عرفنا ان كاتبنا اصيب عدة مرات بنوبات من الجنون ـ فليست « عيد الفصح » اذن سوى تعبير وقتي عن فترة هدوء نسبية واذا عرفنا ان الشكوك والهواجس ظلت تساور سترندبرغ طيلة حياته .. صح لنا ان نتخذ من هواجس « عيد الفصح الكئيب » مقاييس تكاد تكون دقيقة لقياس نفسية سترندبرغ ـ في تقلباتها المختلفة ـ واصداء هذه التقلبات العنيفة . وعلى هذه الشاكلة يمكننا ان نكتشف عوالم جديدة ، في حياة سترندبرغ ـ التي كانت خياة خصبة عجيبة مدهشة ومؤسفة في الوقت نفسه وفي « الس » بطل مسرحية « عيد الفصح » يمكننا ان نتلمس شخصية سترندبرغ في تبجحه المفرق الانانية وغيرته التي لا تحدها حدود المعلم الس هو نفسه سترندبرغ ، حين كان يدرس في « كلارا » وهذا واضح في حديث الس مع خطيبته كريستينا بعد ان يكون قد نزع معطفه الثقيل يوم الخميس قبل عيد الفصح بيومين : « تعرفين انه ثقيل كانه امتص كل مضايقات الشقاء وكل العرق والغبار » ومن ثم فحق له ان يرغب في حمام الشمس بعد كل ذلك الظلام القذر . « ها ان الربيع مقبل بكل روائه وجماله وعافيته ، ها ان الرياح تحي الطيور واحراج والحقول واشجار الزيتون » تحي التلال والجبال والانهار والبحيرات . الحياة تنتعش في كل الاشجار الا اشجار الزيزفون التي يعنى بها الس فانها على ما يرى ستظل تنوء بشتائها القاسي ردحا اطول من الزمن لان الغيمة السوداء التي تخيم على كل شيء في هذه البلدة النائية ، على الطبيعة وعلى الحياة ، لن تفارق اشجاره ... وسيتكرر ما تكرر في السنة الماضية .

وعلى حين فجاة ـ فرت خطيبته منه ـ وهي لا تدري لماذا ؟ والى أين ؟ ثم عادت وهي لا تدري لماذا انها فعلت ذلك انها تعتقد ان شيئا ما في داخلها قال لها : افعلي هذا ، ففعلت . لقد كانت في حلم او شبه حلم ، ولكن مرآه غير الوضع ، فاذا هي تستيقظ من هذا الحلم سعيدة الا ان هذه السعادة لا تدوم طويلا لان « لند كنست » الدائن ظهر فجأة على مقربة من الشباك الذي كانت تتخلله كريستينا بناظريها فتنهار على ركبتيها مرددة : كلا ! هذا شيء كثير فيرد عليها الس : « دائننا ـ الذي يستطيع أن يستولي على كل ما تملك حينما يشاء . لند كنست الذي جاء الى هنا حتى يستطيع ان يقبع في بيته كما يفعل العنكبوت وهو يرقب الذباب » وحين يشتد ضعف كريستينا ويستولي عليها الفزع من مغبة الامر ، تناشد خطيبها ان يفرا معا من هذا الاخطبوط ، لا العنكبوت كما تصوره ايس ، غير ان ساعة الضعف هذه تملأ قلب الس بالشجاعة والجرأة والتحدي ، فهو لا يطمئن خطيبته حسب ، بل يمعن في التحدي الى حد قوله : « استطيع ان اضحك عليه . يبدو وكأنه ينظر الى نفسه بخبث وارتياح لانه يستطيع ان يرى فريسته في الشرك » .

انه لا يشك في وجودهم في البيت ، والباب مفتوح . وهو يخطو بهدوء وتثاقل في الممر المؤدي الى حيث يجلسون . ان كريستينا تتوسل بالسر أن يحول بين امه وبين الطارىء الثقيل ، لان كلمة منها قد تثيره ، ويكون ما قد يكون من سوء العاقبة . اما ايس ، فهو ـ على خلاف هذه الهواجس السود ـ يطير بخياله الى تصرفات لندكنست ، وكلماته وخاصة مثله الذي طالما اعتاد على استعماله : « .. هذه القضية قضية عدل اكثر مما هي قضية رحمة » . وحين تكون المسألة قد وصلت الى هذا الحد الحاسم لا يجد ألس بدا من ان يعترف بهذه الحقيقة بقوله « .. انت على حق تماما ، يا سيدي . خذ ما نملك فهو يعود لك » .

غير ان طيرانه ذاك لا يستطيع أن يبعده عن الحقيقة الشنيعة ، حقيقة الرجل الدائن ذي العكاز و (الكالوش) الغليظ . الرجل موجود ـ في الواقع ـ الدائن قادر على هدم بيته بتعريته مما فيه ، بكلمة واحدة منه .. ولذلك سرعان ما يعود الس الى وعيه ويقول : لا ان الذين يملكون المال يحتفظون دائما بالعكازات والكالوشات التي تحدث وقعا في الارض كالعكازات : « ثم يمد يده الى كريستينا لتتلمس قلبه ويقول معقبا : « المسي كيف يدق قلبي . اني استطيع ان اسمعه كأنه ضجيج باخرة في اذني » .

اذن اين هو الضحك الذي تبجح به ؟ اين شجاعته التي تباهي بها ؟ اين صموده الذي طالما ادعى بالتزامه ؟ كل ذلك تلاشى ، كما يتلاشى كل شيء مفتعل ، متكلف ، مصطنع ، حين يجد الجد ويصطدم الواقع بالحقيقة ! وفي الوقت الذي تخف فيه الازمة ، برجوع لندكنست عن مقصده الذي لوح به وعودته الى داره .. في هذا الوقت تهبط ايليونورا في البيت ، بعد سنة مرة قضتها في احدى المصحات ، مصحة الموتى .. ولهذا السبب بالذات ، يغفلها اهلها ـ على ما يذهب اليه بنيامين بينما هي لا ترى بأسا في ذلك وتقول : « الناس لا يتحدثون ابدا عن الموتى » . انها ميتة بالنظر للناس وكيف لا تكون كذلك وقد اختلست شيئا من المال الذي اؤتمن عليه ابوها فكان جزاء ذلك ان خربت ذمته وسيق بسببها الى السجن ، وهذا امر لا يمكن اغتفاره .

ولكن ، لماذا يجب ان يضع الانسان ، كائنا من يكون ، القيود في يدي اخيه الانسان ؟ الا يجب ان يحرره من هذه القيود اذا وجدها في يدي اخيه ؟.. ان ايليو نورا لا تفكر في هذا التحرير الانساني الشامل حسب ، بل هي ـ وقد تطورت نفسها من ادران المواضعات الاجتماعية كلها ـ بعد العذاب الذي قاسته في (المصحة) تستطيع ان تقول متحدية كل شيء في هذا الوجود : « انا لا احسب حسابا للزمان او المكان . انا خالدة وفي كل مكان . انا في السجن مع الوالد ، وفي الصف مع أخي ، وفي المطبخ مع الوالدة ، وفي حانوت اختي بعيدا عن امريكا » . وفي هذا الذي تقوله ايليو نورا نجد الرقة متجسدة في معان صوفية صرف ، تعطينا مدلولات مسرحية مكثفة ، في الوقت

الذي يجعل سترندبرغ من هذا الصفاء الذهني طريقا لـه نحو مسرح صوفي وهو ما لم ينل منه ما كان يرجوه . ومن معالم هـذا المسرح الاستسلام والخنوع « فما لا بد منه ينبغي ان يكون ، اذ لا مفر مـن ذلك » وهذا ما تبديه ايليو نورا ، لكـن بنيامين التلميذ النجيب يتساءل : « الا يمكن ان تتبدل الحال ، فتكون خيرا مما هي عليه ؟»

بيد ان ايليونورا لا تجد معنى لهذا السؤال ، ولهذا تنتقل الـى موضوعات اخرى ، الى الموسيقى مثلا متمثلة في مقطوعتي « سبـع كلمات » و « يا اماه ، احتضني ابنك » لهايدن اللتين ستعزفان فـي حفلة الغد .. وبينما هي في تهويماتها هاتيك ، تغطـي وجهها بيديها وتبكي . تبكي لانها بحثت عن الخير فجاءها الشر ، بحثت عن الضياء فاذا بها قدام الظلام . وهذا كله يحملها على ان تسأل بنيامين عـن طفولته ، وحين يجيبها بان طفولته كانت صعبة او هـو لا يعرفهـا ويقابلها بالسؤال : « وانت ؟ » ترد عليه بهـذه الكلمات المعبرات : « لم تكن لي طفولة ، ولدت طاعنة في السن ، ولدت وانا اعرف كـل شيء وحين علموني اي شيء ، فكأن ذلك الشيء لم يكن غير تذكر مـا سبق ان عرفته » . وهكذا يضيع الزمن في ذات ايليونورا ، واذا هي شابة عجـوز !

وفي اخر لحظة يغير الس رأيه في الذهاب الـى حفلة صديقه « بيتر » هذا تغيير غير متوقع ، ولكنه مسلك ألس الـذي لا يعرف الاستقرار او الاتجاه ، لان صاحبه على حد قوله قشة تتقلب علـى نفسها في عاصفة هوجاء ، لانه وقد اطبق السجن على الوالد لـم يعد له في يوم الجمعة العظيمة نفسها ما يغير طبيعة وجوده القلقة . نعم ان الاوراق احيلت الى محكمة التمييز ، ولكن مـا الفائدة والاعتراف بحد ذاته كان فضلا عن الشواهد وادلة المادية ؟ ماذا ينفعه ان يقـرأ ملفات القضية مجددا ، ان الكلمات غدت كالاشواك كلما اقترب بناظريه اليها . وألس لا يجد في الكلمات أشواكا بل في الناس ايضا ، ولهذا فهو يريد الظلام مخيما عليه وعلى خطيبته ، لان ذلك يحجبها عـن انظار الناس ، وبشيء من هذه المعاني تحدثـه خطيبته ، ولكنه لا يعترف بمملكة الظلام ، ويقول : « .. أن الامور تعسة كيفما نظرت اليها » ويجري الكلام عن الوالدة ، فاذا بالخطيبة تعرف أنهـا تقاسي اكثر مما يقاسيه الجميع ، ولكنها لا تعرف السبب في ذلك ، وهـذا ما يدعو ألس الى توضيح الامر لها بقوله : « انها تفعـل كـل مـا تستطيع فعله لكي تخفي الاهانة التي اصابتها . وهذا ما يجعلها غيـر قابلـة للناس » .

الوالدة هذه ذات الاعصاب المعطوبة ، تأملها وهـي تحدث ابنها ألس وعن من ؟ عن لندكنست الذي يريد ان يزورهم وفي تلـك الليلة بالذات ، تأملها وهي تقـول : « سألني كيف الاحـوال . وتصور مشاعري عندما سألني فيما اذا كان من الممكن أن يزورنا هذه الليلة». مسكينة ماذا كانت تستطيع ان تفعل ؟ انها ان لجأت الـى السكوت فيكون ذلك ذريعة بيده ، والسكوت من علامات الرضا ؟ وعلـى الضد من ذلك ايمكن ان ترفض زيارته والقانون بجانبه ، القانون الذي لا بد لنا اجمعين ان ننحني لـه بكل احتـرام وخضوع واحتراس . ان لندكنست يستطيع ان يفعل كل شيء ان يأخذ الاثاث مثلا ويعري البيت من كل شيء : هاجس يخطر على بال ألس فينطق به كلمات . الا ان هذه الكلمات لا يمكن ان تكون مقبولة باي حال من الاحوال عند الوالدة ، فاذا بها تثور وتزأر وتقول : « لا يجب ان يأخذ الاثاث . كيف يمكـن أن تعيش اذا اخذا اشياءنا منا ؟ انستطيع ان نعيش في غرف فارغة ـ لا ببساطة لا نستطيع ؟ » وهنا لا يفعل ألس شيئا غيـر ان يتمثل بآيات من الانجيل ، كالآية « للطيور اعشاش وللثعالب اوجار .. » ولا يختتمها متقصدا بل يضيف من عنده « ثمـة اناس لا مأوى لهـم يعيشون في الغابة » .

ويمضي ألس في حديثه فيلتفت الى صديقه « بيتر » وهو بعيد عنه في حضرة الحاكم ومعيته ، والحاكم فـي حفلته الضيف الاول ويقول : « ليس عبثا ان اسمه (بيتر) هذا ما يبدو لي . « والاشارة هنا تلميح واضح عن تنكر بطرس لسيده يوم محاكمته المشهورة هـذا التنكر الذي كان الشاهد عليه الديك بصيحاته الثلاث . غير ان هذه المرارة التي ابداها ألس لم تمض من غير ملاحظة امه الحكيمـة حين قالت : « لا تدع نفسك ضحية لكل هذه المرارة . ان الناس هم الناس ويجب ان تأخذهم على ما هم عليه » . وفيما هما في هم من امرهما ، يسمع صوت طرقات العكازة ووقع الكالوش ، فيناشد ألس والدته ان تترك المكان ، غير انها تصر على البقاء ، وتتمثل بآية اخرى من الكتاب المقدس « ملعون اليوم الذي ولدت فيه » وتردفهما باخرى امعن فـي التشكي وابعث على الاسى وامضى في التأثير . ثـم ان الاثاث هـي الضمان الوحيد لديون صاحب المنزل ، فماذا سيفعل بهم وقـد مضى الاثاث الى غير رجعة ؟ ومع ذلـك فان ألس لا يمكن ان يرى فـي لندكنست غير عملاق طيب القلب لا يريد الا ان يكون فزاعة للاطفال .

اما ايليونورا المتصوفة فهي لا ترى معنى لوجود الاثاث فـي بيتهم ، لانها تعتقد انهم لا يجب ان يملكوا شيئا يربطهم بهذه الارض » ذلـك « أننا ينبغي ان نهيم على وجوهنا فـي الطرق الصخرية باقدامنـا المتألمة ، لان (الطريق) تقودنا الى الاعالي ، ومـن اجل ذلك فهي طريق شاقة ومتعبة » .

غير ان الشيء الذي يعز على ايليونورا مفارقته هـي الساعة ، تلك الساعة العجيبة التي تسرع في وقت المصائب والمحن ، وتبطيء في اوان السعادة والهناءة .. لانها تريد ان تدفع الاوقات الصعبة بأسرع ما تكون السرعة الى الخلف ، كما تتشبث بأوقات المسرة لانها تريد ان تطيل من حياتها حتى يتمتع اصحابها بشيء مـن السرور . ويلحظ بنيامين فيما يلحظه ان ايليونورا متشائمة اقصى ما يكون التشاؤم ، لا ترى في البكاء غير الحل الوحيد لمشكلات الساعة فيسألها : « لماذا يجب ان نبكي دائما ؟ » فتجيبه ايليونورا : « اذا نحن لا نبكي فـي وادي الدموع هذا ، فاين نقدر ان نبكي ؟ »

ويأتي سبت الفصح والجماعة هم هم ، لا تغيير يحصل ، قطعـة هايدن « الكلمات السبع » تتلاشى في الجو بتمهل وهدوء .. اخبـار سجن الوالد تأخذ مكانها المرموق في الصحافة واسلاك التلفون ترن ، وتتساءل ايليونورا : « أليس هذا مرعبا ؟ » فيسأل بنيامين : « ما هو المرعب ؟ » فترد عليه ايليونورا بقناعة ما بعد قناعة : « كـل شيء . الحياة نفسها مرعبة .. انظر الـى الس وكريستينا أنهما شغوفان ببعضهما ، وهما ـ في الوقت نفسه ـ يكرهان بعضهما بعضا » . وهذا امر ثابت فما ان قرأ الس ملفة المحاكمة حتى اخذ كل الشر الذي فيها ينحدر الى روحه ، فظهر ذلك جليا في وجهه وفي عينيه .. ولكـي تحول كريستينا بين هذا الشر وبينها ، كي لا تتدنس روحها ، نراهـا تتسربل بدرع من جليد . غير ان ايليونورا هذه التي تسببت فـي سجن والدها ، سهت حين اشترت باقة النرجس عن تسليم ثمنها الى البائعة يدا بيد ، وقد يكون لهذا السهو عواقب ، واذا حدث ذلـك ، فماذا ؟ هل انها ستقاد الى ذلك المكان الذي لا تشرق فيـه الشمس ابدا ، حيث الجدران بيض عارية ، كانها جدران الحمام ، حيـث لا يسمع غير العويل والنحيب ، حيث اضاعت سنة من حياتها سدى هنـاك .

وتأتي رسالة من المصحة تتضمن طلبـا بارجاع ايليونورا ..

---

(١) مقدمة مسرحيات « الاب » و « الآنسة جوليا » و « عبـد الفصح » : بيتر وطس . (٢) المعجم المسرحي . جـ. تايلري . (٣) ضرورة الفن : ارنست فشر . (٤) المصدر السابق . (٥) مقدمـة « الآنسة جوليا » ستردنبرغ . (٦ و ٧) المسرح الحديث : اريـك بنتلي . (٨) منطقة في السويد مشهورة بحكايا الاشباح والمردة والجن .

وتفضها الام وتنقل الخبر الى ابنها . فاذا هما يصعقان، من هول النبأ. صحيح ان ايليونورا – على حسب رأي الوالدة – كانت ابنة الاحزان ... غير انها جلبت معها سعادة ليست من هـــذه الارض ، وتحول قلقها الى راحة وسلام .. سلام نشرته على الجميع . قد تكون الفتـاة مجنونة او غير مجنونة ، المهم انها حكيمة – بنظر الوالدة لانها تعرف كيف تحتمل عبء الحياة بطريقة افضل منها او مـن اي مـن افراد العائلة . والجنون ! ما معنى الجنون ؟ أكانت الوالدة عاقلة حين اصرت على الاعتقاد بان زوجها كان بريئا ؟ بينما استند الحكم عليه الى ادلة مادية ملموسة ، فضلا عن الاعتراف الشخصي ؟ ثم اليس السى نفسه مجنونا عندما يعتقد ان كريستينا الذي يمحضها كل ذلك الحب تقابله بكل ذلك البغض ؟ المسألة اذن مسألة نسبية محض فما قـد يسمى جنونا عند بعضهم يصح ان يسمى تعقلا ورزانة عند الغير ..

ثم تلتفت الوالدة الى الجريدة التي بين يدي ابنها فتطالبه بها ولكنه يمتنع لحظة فتقول له : « مـم انت خائف ؟ ماذا تنتظر ؟ » فيجيبها : « انتظر اسوأ ما يكون السوء » فتضيف الوالدة على قوله ذاك : « حدث هذا عدة مرات من قبل . اواه ! الس لو كنت تدري ما كانت حياتي تشبه .. لو كنت معي ترقب والدك ينحدر الى الخراب خطوة خطوة » . اذن لقد ساعدت السيدة هيست زوجها في كل مـا اقترف من آثام ، انها كانت شريكته في فعلته تلك ، ولو لـم يكـن القاضي رجلا ذكيا منصفا ، يعرف اوصاب المرأة الزوجة ، وما يؤول اليه البيت ، اذا افتقد الى حاميته ، لكان الحقها بزوجها ، ولرماها في الزنزانة كما فعل بزوجها . هذا الانحدار امر مسلم به ، لانه واقع لا يدفع ، ولكن – يبقى السؤال – وهو ما فطن اليه الس – يبقـى السؤال متعلقا في الجو المشحون بكل الانفعالات المكهربة : لماذا كان هذا هكذا ؟ لماذا انحدر الرجل النزيه ؟ انه انحدر ، لان عاطفـة الكبرياء ملأت جوانب نفسه ، واستولت علـى مقومات شخصيته ، وملكت قياده ، فلم يستطع لها دفعا ، ولذلك لم يجد غير الطريق التي استطرقها .. طريق الناس المذنبين !

وبينما السيدة هيست وابنها يتحاوران ، اذا بالاخير يسمع وقع خطوات لندكنست ، انه آت حتما لزيارتهم .. لماذا لا وكل شيء هـو ملكه الخاص ؟ انه يستطيع ان يفعل بهم ما يريد كيف ومتى ما يريد، وما عليهم الا الطاعة والخضوع للقانون الـذي يعدل بين القـوي والضعيف ، بين الظالم والمظلـوم ، لان النـاس سواسية كاسنان المشط . ويأتي لندكنست الى البيت على الرحب والسعة لانه صاحبه، ويكون التلاقي بينه وبين الس وهو ما هو عليه من نيران تتأجج واعصاب تتحطم وانفاس تفور ، وعيون تتسع وتتقلص ، ولا يكتفي لندكنست بان يأتي الى البيت وحده ، بل هو يجلب معه ورقة زرقاء ليست بحاجة الى غير التوقيع ، ليتم كل شيء على وفق ما يقتضيه العدل والانصاف في المزاد العلني . ها هو لندكنست يريـه الورقة الزرقاء فيغتاظ الس اشد ما يكون الغيظ ويطلب منه ان يعرض المسألة عـلى الجهة المسؤولة حتى يتدارك هذا العذاب الطويل المؤلم .. انه قـد يكون صغير السن ، غير انه لا يطلب الرحمة ، انما كل ما يطلب هو العدل وهذا حسبه . غير ان لندكنست لا يرى هذا الرأي طبعا بل هو يجد نفسه هو المظلوم لا الظالم المعتدي ولهذا فهو يقول بتأثر ظاهر «.. لقد سلبوني – سلبوني مالي بطريقة اشد ما تكون بشاعة . ولما كتبت اليك سائلا اياك المدة التي انت بحاجة اليها اجبتني بخشونة » .

وعندما يصر الس على انه لا يطالب بشيء غير العدل ، ينبري له لندكنست ويقول : « الا تدرك ان العدل اذ جرى مجراه لربما حكم على والدتك بصفتها مشاركة في الجريمة ، وللدلالة على صدق دعواه يقدم ورقة زرقاء اخرى ، وهنا يسقط في يدي الس من رهبة الموقف. ويقف لندكنست خطيبا مبررا موقفه ويقول : « والآن اندرس يوهان لقد كنت المولود في الفقر والناشيء في الحرمان والكدح ، أمن الحق،

وانت في الشيخوخة ان تحرم نفسك واطفالك من المال الذي حصلته بكدك وبعد نظرك ونكرانك لذاتك وادخرته فلسا فلسا ؟ » ويستمـر لندكنست في هذا التشكي حتى يستدر عطف الس الى حد القول : « لن اتشكى ، سافكر في اطفالك » .

أرأيت كيف يكون الجواب المفحم والـرد المسكت ؟ أرأيت كيف يمكن لكلمات قليلات ان تعبر عن ادق المكنونات وبسخرية بارعة لاذعة ؟ ويحرج الرجل فينتقل الى موضوع آخر فيقول متسائلا : « اذن انت لا تعرف المحافظ ؟ » فيجيبه الس : « كلا ، وانا لا اريد ان اعرفه » . ترى كيف تكون انفة اذا لم تكن هذه ؟ كيف يكون الاباء اذا لم يكـن هذا ؟ ثم يغير الس الموضوع مرة اخرى وقبل ان يتم ذلك الغير يفطن لندكنست لتبجح الس وشدة شيمته واعتزاله الناس حتـى اقـرب اصدقائه – فيقول له محذرا : « عليك ان تكون مؤدبا معي ، لانني ضعيف لا حامي لي – انت ترى ان الرأي العام بجانبك – بينمـا ليس بجانبي غير العدل » . ويبدو هذا الضعف في اوضح معانيه في اصرار لندكنست على الس بمواجهة المحافظ ولكـن الاخير يظـل متشبثا بعناده ، غير ان هذا العناد سرعان ما يذوب عندما يلوح له لندكنست بمواجهة والدته .

وهنا يتبدى ضعف الس الذي يتأتى من مأساة والدته العميقة.. ثم يتطرق لندكنست الى خيانة بيتر ولكنه يبررها بما أوتي من حكمة عملية بقوله : « .. حسنا ، كان خائنا ، لقـد صاح الديك مرتين أليس كذلك ؟.. ان الطبيعة البشرية ليست موضع اعتماد : كان بيتر خائنا ، انا لا ادافع عنه . لكن القلب البشري لا يسبر غوره فهو مزيج من الذهب والنفايات » . ويتقرب لندكنست الى الس اكثر فاكثـر ويعود الى مثله المعاد ، لا بد لكل شيء ان يتم حواره المحدد له ، ألس يؤكد هذا ولكن لا بد ان يكون هذا الشيء شرا ، ولهـذا فالخيـر لا يجازي الا بالشر ويرجع لندكنست الـى القضية ، موضوعة البحث ويتساءل عما يملكه الس من رصيد في المصرف .

ولما يعترض الاخير عليه ، بان هذا امر ليس مـن شانه يثور لندكنست ويقول : « الست ! الست ؟ ألم تكن هناك ، تأكل وتشرب في حين كانت ثروة ابنائي تبذر هنا في هذا البيت ؟ » وعنـد هـذا الحد ينفجر الس ويقتطف من دفتر الصكات ورقة ويسجل فيها كـل ما يملكه من رصيد لتغطية الدين الذي يتبقى في ذمة العائلة بعد بيع الاثاث ، ويقدم الصك الى لندكنست قائلا : « .. هاك كل ما املك . ليس لي شيء اكثر استطيع ان اقدمه » . ويتبين لندكنست الصك ، فاذا بالمبلغ الذي يتضمنه لا يسدد الدين بالتمام والكمال . وعند هذا العجز الذي بدا واضحا ينهض لندكنست منتصرا متعاليا ، مؤمنـا بقوته التي لا تقهر وبأسه الذي لا يخيب . انـه متمكن من فريسته فليرم بشباكه وليقل : « ها هو انذاري ، لك الخيار . اما ان تشكر بيتر او تدفع المبلغ كاملا » ويرى الس نفسه في حيص بيص ، فـي المصيدة الملعونة ، في شباك السفالة والغـدر ، ويركس كأي ابي . ويمتنع عن ان يتنازل عن كبريائه قيد شعرة . لانه ان تنازل عنها انحدر وانزلق وتدهور ، واسرع بكل ثقله الى الهاوية . حيث الخواء حيث لا شرف ولا كرامة ، ولا اباء ، ولا انسانية ولا روح ولا وجود . الخواء الاسود ، العدم المطلق ، ضياع كل شيء .

وتثمر هذه الصلابة ثمرتها فاذا بالعملاق من (سيكنار فسبرغ) (8) يتحول انسانا اعتياديا له قلب يذكر الفضل والمعروف والجميل ، واذا بهذه القوة القهارة ، بالمال الذي يهز الجبال ، ويلوي الرقاب ، ويبكي الرجال ، ويقلب الخير شرا والشر خيرا ، هذه القوة الخفية الظاهرة تنهار قدام صمود الس . واذا بالرجل يعترف بما كان عليه ايام زمان فيقول : « .. كانت ليلة مظلمة ولم اكن املك غير كرونر واحد . ولما كنت لا اعرف اي فندق رخيص ، سألت المارة ولكن احدا منهم لي يجبني . وبينما انا في اعماق اليأس . جاءني رجل وسألني لماذا ابكي .. كانت

في ذكرى شوقي

القيت في المهرجان الذي اقيم في سان باولو بمناسبة مرور مئـة سنـة علـى مولـده

مارد الشعر فـي رحاب بيانـه ... ذكرك اليوم ذمة مــن زمانـه
حب جيل نكنـه فـي الحنايـا ... خمرة الحب عتقت فـي دنانـه
كنت انقى مــن الدموع شعورا ... في براح الهوى وخفـق جنانـه
كنت أقوى مــن الخطوب رياحا ... ان طغى الخطب في مدى هيجانه
كنت دنيا مــن الروائـع أعلت ... مسرح الشعر فـي ذرى انسانـه
لـم يعبك ارتداد كبـرى تحدى ... سالف الشعر في أعـز افتنانـه
اذ وصلت القريض عصـرا بعصر ... وأتيت الجديد قبـل اوانـه

يا رسول الوئام في شرقنا العانـي ، ويــا خطيبـا معبـرا بلسانـه
قـم اليه فقـد دهته رزايـا ... عاصفات تـدك مــن بنيانـه
مزقت شملـه وهـزت قـواه ... فتداعى بالضعف مــن أركانـه
أفسدت قولـك المخلـد فيـه ... اذ قسمت الشعور فـي ميزانه :
« كان شعري الغناء فـي فرح الشرق وكـان البكـاء فـي أحزانـه »
أين ؟ أين الغناء في فـرح الشرق ، وسيل الخطوب أودى بشانـه ؟!

شعر شوقي رسالة مــن سماح ... سار فيها علـى هـدى قرآنـه
فتجلت سماوة الوحـي تطـري ... شرع عيسى وتتبري لصبانـه
فترى الرفق توأمـا ليسوع (١) ... والمؤاساة فضلة مــن بنانه (٢)

نحن فــي غربـة المهاجر نسعى ... بطمـوح نجـد فـي ميدانـه
نوثـق العهد بالوفـا لبـلاد ... غمرت سعينـا بوفـر امانـه
وأتاحت لجهدنـا كـل عـون ... فاستحقت ثناءنـا بامتنانـه
فالبرازيل موطـن الرفـد فيـه ... أفسح الله جنـة مــن جنانـه
فسلام علـى مضاف اغتـراب ... عهد شوقي يمور فـي أمازونـه
غير ان الغريب بـاق يعانـي ... مـن حنين يعب مــن حرمانـه
زائـرا بالخيـال أرض رؤاه ... مدرج الطفل جوهر فـي كيانـه

(١) اشارة الى قول شوقي في ميلاد يسوع : « ولد الرفق يـوم مولـد عيسى ... »
(٢) اشارة الى قول شوقي مخاطبا الصليب الاحمر :
« والمس جراحات البرية شافيا ... ما كنت الا للمسيح بنانا »

نسيم نصر

الدموع تترقرق في عيني . وحين ابلغته بمتاعبي ، اخذني الى فندق، وحينما كنت داخلا الى قاعة الفندق حدث ان انطبق علـي البـاب الزجاجي ، فضرب منكبي وانكسر الزجاج . وجاءني صاحب الفنـدق مهددا اما ان ادفع الغرامة او يسلمني الـى الشرطة .. وتدخـل الصديق المجهول الذي رأى كل شيء فانقذني » .

ويستطرد لندكنست بانسانية جارفة فيقول : « .. الرجـل .. كان الرجل اياك .. واذن لا بد لكل شيء ان يتـم مداره . الاشياء الخيرة ايضا » . ثم يتطرق لندكنست الى اليونورا ويقول مقارنا بين عينيها وعيني والدها : « لك عينا والدك الرحيمتان . كان الرجـل انسانا طيبا ، لكنه كان ضعيفا ايضا » . وهذا القول امـر مدهش بالقياس الى ايليونورا ، انه يتكلم كلاما طيبا عن ابيها ، كيف تتصور ان احدا ما يمكن ان يظن خيرا فيه ؟ وينتصر الخير في الانسان علـى الشر الذي فيه ويصعق المال من هذا الانتصار فيولي هاربـا مرتجفا خائبـا .

بغداد

يوسف عبد المسيح ثروة

جميـل منصور حـداد

بقلم شكر الله الجر

* * *

هو واحد من عشرات الشعراء المتحدرين من أصلاب لبنانية وسورية تجري في عروقهم قطرات الندى المتجمدة على جبين الشرق دما ذكيا حارا يشع بالنبوغ والحيوية..

فهناك سلمون جورج شاعر تقهقه العاطفة في الفاظه وتزدهي المنابر بطلعته.

وهناك الشاعرة ديفا جبور ينتحب النسيم في غدائر قوافيها وترقص اشباح المساء في ظلال معانيها.

وهناك فرنسيسكو كرم يحوم النحل على ازاهر بيانه شعرا ونثرا وقد اشتهر بتصوير مشاهد (السرتون) يعني (مجاهل البرازيل). وسواهم كثيرون منهم من احترفوا الادب وشاطوا اشواطهم فيه ومنهم من تنكبواعنه واكتفوا منه بحلية جميلة يتقلدونها في المناسبات.

اما شاعرنا جميل منصور وقد اخترناه لنتحدث عنه شاعرا رومنسيا مشى في موكب البيان كوكبا لامعا ولا يزال يتحف الادب بخرائده الرائعة.

اشراب به الخيال الى مسارح الابداع في الشعر فتفتحت له ابواب (المجمع الادبي) في مدينة سان باولو ليتبوأ مكانة اللامعين بين اعضائه.

استهوته الطرائف الجبرانية فمال الى ظلها وقد بهرته رقارق سحرية فيها. فما عتم ان طلع على محافل الادب « بالاجنحة المتكسرة » تتهادى بترجمة انيقة ولغة شعرية رشيقة تدغدغ المشاعر فانسربت الى الاعماق من قلوب العذارى .. فكان من حظها الرواج المطلق في حقولهن المخصبة بالاحلام .. واذا باسم الشاعر يتردد قبلا معطرة على الشفاه الموردة. ولا غرو بذلك فالمرأة البرازيلية اكثر النساء تحسسا بالادب العاطفي .. شفافة الرؤى رومنسية الخيال .. تنتشي باللهاث المتصاعد من القلب وتحترق على جناح الحب.

واي فتاة من فتيات هذا العصر في ذلك القلب من الدنيا لم ترتشف من ثدي امها خمرة الحب .. ولم تنطبع على شفتيها ثفثفاته وهي بعد رضيعة في المهد !

لقد ضرب الدهر شاعرنا باليتم من ناحية ابيه وهو في مطلع الصبا، فاذا بالحياة من حوله مساء أرعن خضيب ونغم مشوش غريب ..

وما ان مرت به فترة حتى أطل على دنيا الادب في البرازيل برائعة عنوانها « صلوات سوداء » ويا لها من صلوات تنبع من غابة الاحزان في نفسه، انتشرت صفصافة كئيبة في ساحة الشعر من افانينها الفاقة واليتم. فجاءت طرفة من طرائف الادب الحزين. ومن يدري ان لا تكون البرود السود التي تجلل أم الشاعر حدادا على ابيه هي ما أوحى اليه « بصلواته السوداء ».

كانت المسكينة في الربيع الثلاثين .. (بلزاكية) النضج، عطرية الفوح عندما اغتالت يد اثيمة زوجها وهو في الاربعين، ففرشت دروب حياتها بالدم فاذا هي في عين الشاعر نصب قائم للحزن في أروقة بيته !

ومن مآسي الاقدار ان تتراكم غيوم وغيوم على شمس الصبا في حياة الشاعر تنعكس ظلالها على عرائس افكاره فتبدو شاحبة ولكنها خلابة جميلة ترقص في شفوف من خيوط المساء ساعة الغروب.

واذا شئت ايها القارىء الكريم أن تربط بين شرقي الارض وجنوبها بين شاطئين، شاطىء الاتلانتيك وشاطىء بحيرة المتوسط، فتعال معي لنمشي من غابات (الامازون) في البرازيل الى غابات الصنوبر في بلدة بعبدات من لبنان، لاريك وجها من وجوه الشبه الغريبة بين شاعرين ؟ كلاهما عاش يتيما من ابيه وكلاهما وقع على اوتار واحدة انغامه الشجية فاسترق القلوب واسترهف الاسماع.

ومن منا لم يقرأ « ارجوحة القمر » لصلاح لبكي ورتل معه ترتيلة الشتاء في هياكل وحدته وغنى معه اغنية الغياب !

يا حسن ذاك الموعد	يمحو من العمر غدي ..

وله :

أخذت نفسي من حزن الشتاء	وانزوت بين ضلوعي وبكائي
زفرات النفس في وحدتها	أنا استغفر عنها كبريائي
فالكآبات على انواعها	خطبتني واقامت في سمائي

ولننتقل من حزن الشتاء في ارجوحة اللبكي لنشاهد اعمدة الدخان تتصاعد من صلوات منصور « كما تداعب الرياح أعمدة النار المتصاعدة من الاغصان اليابسة، هكذا تلاعب الايام السنة الدخان المتصاعد من مجامر قلبي ». « كل شيء يصلي في هذا الكون حتى البومة .. ان في نحيبها ما يشبه الصلاة » .. « ان لزهور الربيع آلامها ودموعها فمن وخزات الشوك في اضلاعها الى قطرات الندى في اهدابها ».

ولنترك الآن حديقة الشاعرين لبكي ومنصور لنحل ضيوفا على الشاعرة الشقراء « الزيرا فريتس » المتحدرة من والد الماني وام لبنانية تخاطب (كوبيد) وتنتظر بعد ان زارها مرة ان يعود اليها مرة ثانية فهي ما برحت تعلل نفسها بقدومه. قالت تحت عنوان: « لم تأت ... »:

« لقد اضأت المصابيح في بيتي الصغير، وبسطت المائدة، وجلوت آنيتي الفضية. وزينت جدران غرفتي

بعـد عـام

ويمـر عـام
ولنهلة من نبعها تشتاق أسراب الحمام
فتطير ممسكة حبال النور نحو ربوعها
حيث الغصون تحن في شوق ليوم رجوعها

عبـر البحـار
نحو الرياض الخضر خلف افق تحجبها القفـار
تمضي معطـرة القـوادم تمتطـي متـن الريـاح
والنار تسري في الجوانح كلما خفـق الجنـاح

قيـد حديـد
ناءت به مذعورة اشراقة الفجر الوليد
تلك الغيوم تراكمت دكناء في لون الشقاء
والبرق يطعنها فتجري من مقاتلها الدماء

مـات الدليـل
غاب الضياء فليس من هاد الـى تلك السبيل
ويضل سرب حمائمي مـا بيـن أطباق الظلام
وتلفـه سحب الشكوك فـلا وراء ولا أمـام

هطـل المطـر
فخيوطه لحمائمي شرك .. وقد خسف القمر
الرعد يزعجها فتختلـج الخوافـق راعشات
والريش مبتـلا كأطـراف بقيـد مثقلات

هـل مـن رجـاء ؟
هل دفقة من دفء تلك الشمس تسطع في السماء؟
فيجف تحت شعاعها مطـر وينقشع السحاب
ويلوح ذاك النبع مـن بعـد ويرتفع الحجاب

أيـن الفـرار ؟
واذا بصاعقة تصيب شجيرة فتشب نار
واذا سناها يغمـر الدنيا بأنوار عجيبه
رفعت عن السر الكبير ستار أوهام مريبه

سقـط القنـاع
واستأنست تلك الرؤى العذراء مـن بعد امتناع
وتراجع الاعصار فارتاحت مـن الشك القلوب
وبدا فراغ اليأس ممتلئا مـن الامل الطـروب

الحـق بـان
وتلملمت طيات ذاك الستـر وانحسر الزمـان
وطوى المكان برفـة مـن خافق سرب الحمـام
ليحط عند النبع نبـع وجوده مـن بعـد عـام

الجزائر — جمال مرسي بدر

بالزهور ولكنك لم تأت .. »

« لقد رفعت على بوابة حديقتي اقواسا مـن الورد والياسمين ، وفرشت ممراتها بالسجاجيد الاصفهانية ، ثم تحليت باقراطي الماسيـة واساوري الذهبية وحنيت اظافري ، وحشوت بورق الغـار وسائدي ، وعطرت بالطيوب ارداني وانفاسي ثم جلست فـي ضوء القمـر انتظر قدومك ولكنك لم تأت .. »

« وغدا وما اقسى كلمة غـد على قلبي .. وقـد انحدرت عن قمة الصبا الـى شاطىء الكهولة ، وبيضت الليالي غدائري السوداء وانطفأ بريق الرغبات في عيني.. من يدري انني يومذاك لا التقي بك مقبلا علي تعرك قدماك الورديتان رمال الشاطىء .. ولكن ولكن هيهات .. »

اجل ايها الناس ــ ان بمثل هذا اللهب المتصاعد يخلد الشعراء . ولم ار في الدنيا بلدا كالبرازيل تعددت الوان الشعر فيه وذلك ان لكـل جالية مـن الجوالي الاجنبية التي نزلت تلك البـلاد خصائصها النفسية ولمحاتها الوراثية تلمسها موزعة في نفثات شعرائها وقد تباينت طعما ونكهة وتنوعت مزاجا وخيالا فكان لشعرهم اصباغه الشيقة والوانه الآخاذة بلفـة موسيقية واحـدة يلفهم رداؤها وتشتعل بانغامهم ارضها وسماؤها .

جبيل ــ لبنان — شكر الله الجر

كان منبوذا ..

عاش طفولته وهو لا يستطيـع ان يرفع راسه الى السماء ليرى مـا فيها من الاشياء ..

الاطفال كلهم كانوا لا يطيقـون ان يتطلعوا في وجهه ، فان اقبل منهم نفروا عنه ، وان اراد ان يتحـدث الى احدهم ابتعد عنه وتجاهله .

كانوا ، كل اطفال المحلة ينظـرون اليه كشيء مجرد مـن الحياة ... مجرد عن الاحساس .. كأنهم كانوا ينظرون الى قطعة من جماد لا حس فيها ولا شعور ..

وكان يتألم ..

تؤلمه حتى الموت تلك النظـرات الجارحة ، المتلئة بالتقزز والنفور ، التي كانت توجه اليه من كل اطفـال المحلة .. وكانت تئن في قلبه كلمـا انفرد عنهم بنفسه ليستعرض فـي المخيلة نظراتهم الناقمة ، المحملـة بالحقد ، والمشبعة بالاشمئزاز منه .

كان ضحية ..

ضحية الاقدار ..

ضحية ، كان من الممكن ان تضعها الاقدار في غيره لو انها ارادت ان تترفق به قليلا .. وكان من الممكـن ان يكون احد هؤلاء الـذين ينفرون منه ويحقدون عليه الضحية لها ..

ان قصته معنا تبدأ منذ صبيحـة ذلك اليوم الرهيب .. يوما ، كانت الكآبة تغمره ، والمطر يتسـاقـط بعنف وقسوة من جوف السمـاء لتجرح قطراته وجه الارض في كـل مكان منها .. كان السماء كانت فـي اوج غضبها وحقدها فراحت تصب لعناتها على كل هؤلاء الناس الذيـن تنالهم بأمطارها ..

واحدى النساء ، قامت مبكـرة لتفتح باب بيتها حين وجدت علـى عتبته لفافة صغيرة من القمـاش في داخلها طفـل صغير لا يتجاوز عمره البضعة ايام يبكي ويئن مـن البرد ..

اشفقت عليه، واحسست له بالرثاء منذ اللحظة الاولى التي طالعها فيها وجهه .. وكان ينظر اليها من خلال دموعه الحارة ، النازفة من بين عينيه المورمتين من البكاء ..

وحملته بين يديها لتدخلـه الى بيتها ..

كانت هذه هي قصته ..

واستقبلها زوجها ، رأى الطفـل بين يديها ، فاستغرب .. ثم ، فهم كل شيء منها ، ولان قلبه عليه كما لان قلبها هي من قبله ..

قال لها وهو يرفعه اليه قليـلا ويتأمل الدنيا في سماء عينيه :

— ماذا سنعمل به ..

اخذته منه ، وضمته الى صدرها، ثم راحت تتأمله للحظات، وتساءلت:

ضحية الاقدار

بقلم حازم مراد

— الا تؤمن بان الله لا ينسى عبده؟

— أؤمن .. بالطبع اؤمن ..

اندفعت قائلة وهي تحتضن الطفل اليها كأنها تريد ان تدخله الى قلبها وتضعه فيه :

— الله قد حرمنا من الاطفال كـل هذا العمر الطويل الذي قضيناه معا، ثم اعطانا ما كنا نتمنى ان يكون لنـا هذا الطفل ليكافىء به صبرنا ..

قال بعد تردد قصير وهو يدنـو قليلا من الطفل ليتأمله :

— لكن ، ماذا سنقول للناس يـا



عزيزتي .. سيسألونك من ايـن جئت به .. بماذا ستجيبيهم لتسدي افواههم الجائعة الى الكلام ..

ردت بأصرار وهي تمسح عـن الطفل ما تبقى من الدموع ما بـين عينيه :

— لن يهمني ما يقوله الناس عنـا .. لن يهمني كلامهم ، ويهمني اكثر ان يكون هذا الطفل لنا ..

— فلتكن واقعيين قليلا يا عزيزتي!

قاطعته :

— ما الفائدة .. اننا متفقان معا على ان نبقيه لنا .. الا تريده انت ؟

— انى اتمنى ان نبقيه لنا ..

— أذن ، انس كل الناس . ولنقل لهم جميعا انه طفلنا ، اعطانا اياه الله ليجازينا على صبرنا الطويل ..

و .. مضت الايام ..

والطفل ينمو ويكبر ..

وحكايته تثير التساؤل في كل يوم مقبل ..

واستطاع الناس أن يتوصلوا الى الحقيقة ..

ابن حرام .. اسموه بابن الحرام ، وعرفته المحلة بهـذا الاسم منذ ان عرف ناسها بقصته .. واخـذت الحكايات الكثيرة تروى عنه .. كل واحد في المحلة كان يحوك عنـه حكاية ..

وكل الحكايات كانت تقف لتجرح في قلب المرأة والرجل اللذين كانـا يحاولان ان يبعدا تلك الحكايات عـن الطفل لئلا تثير في نفسه ما اثارتـه فيهما من الحزن والتعاسة ..

واستطاعا الى حد ما ان يبعـدا الحكاية عنه ..

لكنه ، حين كبر .. وأصبح عمره بضعة سنين ، استطاع أن يعـرف اشياء كثيرة كانت تدور في جو مـن الغموض من حوله ، واستطاع ان يقدر ان هناك اشياء يخفيها عنه والـده وتشاركه فيها أمه .

وان ابتعاد الاطفال المحلة عنه كلما اراد ان يلعب معهم له سبب .. وان

زجر الامهات لاطفالهن كلما يرونهم يقفون معه في الشارع له سبب .. وان بغض الاطفال ومقتهم له لا يمكن ان يكون من غير سبب .

حاول ان يعرف .. ان يفهم كل هذه الاشياء الغريبة التي كانت تدور من حوله دون غيره من اطفال المحلة ..

ولم يستطع .. ثم ..

ذات يوم ، كان عائدا من مدرسته الى البيت حين تصدى له احد صبية المحلة ليوقفه ، فوقف في مكانه ينظر الى الصبي بنظرات وجلة يمزقها الخوف ..

وقال له الصبي وهو ينهره :

ـ اسمع .. منذ اليوم لا نريد ان نراك في محلتنا ..

استغرب وطافت فوق وجهه علائم الحيرة من موقف الصبي منه ، ورد عليه بتخاذل :

ـ لماذا .. اني لم افعل لكم اي شيء ..

ـ بالطبع لم تفعل لانك لن تستطيع ان تفعل اي شيء لنا .. نحن اشرف منك ، وانت ينقصك ان تكون شريفا مثلنا لتقف معنا ..

ـ سامحك الله ..

صاح به الصبي وهو يسحبه من ثوبه اليه ويستعد لصفعه :

ـ حسنا ، قل لي .. من هي امك؟

ابتسم ، كانه يشفق على الصبي الذي يجهل من تكون امه ، ورد :

ـ امي .. امي تلك المراة التي تراها في بيتنا .. هل حقا لا تعرفها؟

ضحك الصبي بكل شهيته للضحك ، وقال :

ـ ليست امك تلك المراة .. وامك امراة اخرى .. امك لا احد يعرفها، واما هذه المراة فقد عطفت عليك يوم ان راتك تنام في الشارع واخذتك لها ..

ـ وانت لا اب لك .. لعل اكثر من رجل قد تعاونوا على تكوينك ..

ـ كلا ..

ـ انت ابن خطيئة .. ابن حرام .. ابن ..

ـ كلا ..

ـ انها الحقيقة ، ومن اجل هذه الحقيقة فاننا لا نريد ان نراك بيننا بعد اليوم في المحلة ..

انفلت من قبضة الصبي ليعدو الى بيته والدموع تغرق عينيه ..

وابتدأ يتعذب ..

عذبته افكاره القلقة المعلقة ما بين ضآلة تقديره للكلمات التي سمعها من صبي المحلة وما بين خوفه مما قد ينجم عن تلك الكلمات ..

واخذ القلق يذوب له انفعالاته في بركة من الخوف ..

ولم يأكل شيئا في ذلك اليوم ، وصعد الى غرفته ليدفن اوجاعه كلها في فراشه .. وبكى ..

لم يكن عنده غير الدموع ليغسل بها كل تلك الاوجاع التي تتزاحم في كيانه لتحيله الى الدمار ..

من هي امه تلك التي ولدته ثم القته في عرض الشارع لتنهشه الاقدار التي لا ترحم ؟ .. من تكون تلك المراة الظالمة القلب .. المراة التي بلا ضمير .. من هي ؟

ووالده .. من هو .. وكم من الرجال اشتركوا في انجابه .. المجرمين .. السفلة ، الكلاب .. ال .. ال ..

وداخ راسه بأفكاره ..

واحتار كيف يجد لافكاره القلقة ما يريحها ويهدأها في راسه ..

ثم .. لم يستطع ان يهدىء اي شيء فيه يثور عليه ويتمرد فيداخله ليحرضه على التحدي لكل الناس .. لكل من يقف في وجهه ليكشف له عن حقيقته التي ابتدأ يشعر بوجودها فيه ويلامسها في الايام الاخيرة من كل الذين يحيطون به ..

وقرر ان يتحدى الكل .. ان يتحدى كل من في المحلة ..

وخرج اليهم في اليوم التالي .. ووقف امام بيته يتطلع في الاولاد المنتشرين في كل مكان من المحلة وهم يلعبون ..

ورآوه .. واخذوا يتهامسون فيما بينهم عنه ويتطلعون اليه باحتقار كبير ..

واخفض عينيه عنهم ، ثم رفعها اليهم جميعا .. كانه كان يريد ان يثبت لهم انه لا يختلف عنهم في شيء ، وان كل مصيبته في الدنيا انه ضائع بينهم ولا يدري متى ستستقر به الدنيا ..

وطالت وقفته ..

ثم اقترب منه احد صبية المحلة .

سار من امامه بترفع كبير كانه كان يريد ان يشعره بأنه ارفع مكانة منه ..

و.. بصق الصبي امامه ..

ولم يقل هو اي شيء ، وبقي في مكانه يتطلع الى الصبي برهبة وهو يتوجس خيفة منه ..

لم يحتمل الصبي سكوته وعدم مبالاته له ، فاقترب منه اكثر ، وقال له وهو يلتفت الى بقية الصبيان في المحلة ويغمز لهم بعينيه :

ـ لماذا تقف هنا ..

نظر اليه بحزن ، وتمتم بصوت واطيء يذبحه الالم :

ـ انيكما ترى اقف بجانب بيتنا .

ـ ونحن لا نريدك ان تقف في محلتنا ..

ـ لماذا .. لماذا لا اقف ..

ـ لانك لست منا .. انت عار علينا كلنا ..

قال وهو يلتفت الى كل صوب من المحلة ويرى الاطفال والصبيان يتجمعون من حوله :

ـ هل لست من هذه الحارة ؟..

صاح به الصبي بكل صوته ليسمع البقية من الصبيان التي اخذت تزحف نحوهما :

ـ كلا .. ان حارتنا لا تقبل ان يكون فيها ابناء حرام مثلك ..

ـ لا .. لا تقل هذا ..

ـ انت ابن حرام .. وانت تعرف

متى وكيف اعود ؟

●

لست أدري متى وكيف أعود   لون العمر بالدماء الوريد
لست أدري أيبرأ الجرح يوما   وضحاياه كل يوم تزيد
لست أدري أيقدح الزند نارا   وعروقي ينام فيها الجليد
لست أدري وقريتي يا رفيقي   غيبتها عني وعنك الحدود

هاجم الليل في الشتاء عيوني   أي شيء يا ليل مني تريد
أنا أعمى وخطوتي تتهجا   أحرف المشي لا تعي فأحيد
أفترجو من الجمود حياة   كيف يحيا مع الضياء الجمود ؟

صاحب الحق في الوجود ينادي   وحناياه بالتياع تعيد
أين مني بيادري وحقولي   ضاع في زحمة الوجود وجود
عزف القهر يا أخي في جحيمي   كل لحن ليرقص التشريد
ضمني انت مزق البعد روحي   وتلاشى مع المدى التغريد

لست أدري متى وكيف اعود   ودياري يعيث فيها اليهود

حلب   محمود علي السعيد

هذا ، وتعرف ان امك كانت قد باعت نفسها ذات يوم لرجل غريب فجئت انت ..

ـ سامحك الله ، ودعني اذهب ..

اراد ان يعود الى بيته غير ان الصبي امسك بتلابيبه ليوقفه في مكانه ، وصرخ في وجهه والغيظ يلتهمه :

ـ هذه المرة لن نتركك تذهب قبل ان تعدنا بان لا تطأ اقدامك ارض هذه المحلة بعد اليوم ..

نظر اليه .. ثم قال بتحد ضعيف وكل أوصاله ترتعد من الخوف :

ـ اننا جميعا اخوة في هذه المحلة، وسأخرج في أي وقت اريد دون ان يعترضني احد ...

و .. على حين غرة ، ارتفعت يد الصبي لتلكمه على فكه بكل قوة صاحبها ، فتراجع الى الخلف قليلا، وقبل ان يستقر على قدميه عاجله الصبي بلكمة اخرى على صدغه فسقط على الارض يتلوى من الالم .

وحاول ان يقوم من مكانه ليقف على قدميه .. لكنه لم يستطع .

وجد نفسه يتمرغ في الوحل ، واربعة أو خمسة من صبيان المحلة الاشداء يهجمون عليه دفعة واحدة نكيلون له اللكمات بوحشية ويركلونه بالاقدام ..

وبكى .. لم يبك من الوجع ، وانما من الحزن ..

وحين نفض الصبيان أيديهم عنه كان قد غدا كتلة من اللحم غارقة في بركة من الدماء الحارة ..

ورفع رأسه الى الاعلى قليلا ليلتقط انفاسه ، وتطلع فيهم واحدا واحدا ، وتمتم لهم جميعا :

ـ انى اغفر لكم جميعا ما فعلتموه بي .. واننا اخوة ..

ثم ابتسم لهم ابتسامة شاحبة .. ضئيلة .. كانت تمثل بضآلتها ما تبقى له من لحظات قليلة على هذه الارض ..

واسلم الروح .

بغداد   حازم مراد



المصيـــــر

قصة خيالية ـ تأليف يوسف جاد الحق ـ ١٧٣ صفحة ـ الناشر مكتبة اطلس بدمشق ١٩٦٨

لقد كثر ترداد كلمة « المصير » في هذه الاوان ولم تكن من قبل سنين داخلة في التداول اللفظي والكتابي ، لكن ما دهم الامة العربية المعاصرة من حوادث وكوارث خط في معجمها الحديث هذه الكلمة وهي «المصير» و « المصيرية » ولقد حسبت ان اجد لها ذكرا في القرآن الكريم ، فاذا بي لا اجد لها اثرا فيه .

يقول المؤلف الفاضل في مقدمته ما معناه ، ان قصته رحلة فضائية يبتكر وقوعها عام ١٩٨٠. وفي ذلك العام يصبح التقدم العامي قد خطا اشواطا بعادا ، فاستطاع الانسان العالم ان يهبط على سطح القمر ثم ان يصل الى المريخ .

وما غاية القاص الاستاذ « يوسف جاد الحق » في هذه القصة امتاع القارىء او حمل السرور الى قلبه ، وانما يجد غايته في حوار يتداوله شخوص الرواية فيصفون الحوادث الانسانية في هذا العصر وما يصارع المرء من اجله من الفكر والكوارث وما يمارس من الحروب .

وقد اعترضت سبيل القصة قضية علمية نامية وهي :

ـ هل من حياة على سطح المريخ ؟ او ان المريخ جرم سماوي هامد لا حياة للمخلوقات فيه .

وراح المؤلف النابغ يمارس ما قيل في هذا الافتراض من نفي واثبات ثم يميل الى رجحان لوجود الحياة في كوكب المريخ .

ثم اخذ بمتابعة الاحداث الغريبة كسقوط اجرام سماوية على وجه الارض او التقاط هتافات أثيرية آتية من كوكب اخر .

ويرتفع المؤلف وكانه راكب مصعدا يمعن في الجو ليجتاز افاق الفضاء ومعارج السماوات لكي يجد حياة على المريخ هي الحياة المثالية التي يحلم بها الانسان الفاني ، تكون فيها النفوس مجردة من احقادها، والابدان بريئة من امراضها فتصلح بالاقتداء حياة الانسان على الارض وتبرأ من ادرانها التي ما زالت ترين عليها منذ خلق الانسان حتى اليوم.

ولم اجد كل ذلك غريبا على الفكر البشري الذي يمثل جانبا منه هذا المؤلف القاص الذي مارس القصة الواقعية حتى الان فاحب ان يدخل بفنه زاوية جديدة وهي ممارسة القصة الخيالية ، فحملخاطري على رجعة الى قيمة الادب ومقدار تاثيره في العلوم ، فان القاص الفرنسي جورج كورتيلين الذي توفي سنة ١٩٢٩ قد تخيل في رواية من رواياته وهو من اهل القرن الماضي واوائل القرن الحاضر ان جماعة ركبوا صاروخا ونزلوا به على سطح القمر ، لكن الحياة القاحلة هناك لم تطب لها نفوسهم فعادوا ادراجهم الى الارض ، ليعلموا حق العلم ويقرروا جدير التقرير بأن الارض هي اجمل دار للانسان في الوجود .

فكان هذا الاديب فاتحا باب التامل في الكشف عن حقائق الوجود والمساوىء وسباقا لما يطلع به المعاصرون اليوم من محاولات للهبوط على سطح القمر بآلاتهم الطائرة الجبارة التي يدورون بها حول الارض وحول القمر معا وهم حتى اليوم في محاولات دائبة لانزال انسان على وجه القمر .

ويعود بي الخاطر ايضا الى اكتشاف الحاسة السادسة التي زاد بها العلم المعاصر على الحواس الخمس وهي ان الكاتب العالمي المشهور رومان رولان كان يوما في مقهى وهو شارد الفكر يكرع كأس شراب امامه على الخوان فاحس كأن شيئا يدق على نقرته وقذاله فالتفت فاذا احد حساده جالسورائه وعيناه محدقتان في نقرته ، فقال ان في ذلك لشعورا غريبا وهو غير ما تعطينا اياه الحواس الخمس . فجاء العلماء بعده واكتشفوا الحاسة السادسة التي تدلف الى مثل هذا الشعور .

وكنت اوثر وانا اجيل الفكر في الاسطقصات الاربعة وهي التراب والنار والماء والهواء ، فاسأل نفسي هل من اسطقص خامس استطيع ان اضيفه اليها حتى وجدته وهو « الانسان » ، فالانسان عندي هو الاسطقص الخامس ولست ادري ان كان علماء الفلسفة العلمية وعلماء الطبيعة يقرونني على ما ارى من زيادة العناصر الاسية الاربعة التي كانت منذ ارسطو وفيثاغورس حتى اليوم ، وقد استعصى على العقل البشري ان يضيف اليها الخامس .

هكذا اجتذبني مؤلف قصة « المصير » الاستاذ يوسف جاد الحق الى خيالات مسرعة كخياله السالب المفتان .

اما فن الحوار الذي اتقنه المؤلف النابغ واراده بين شخوص الرواية فانه منحة فنية آتاه اللسان العربي قدرة عليها ، والشخوص المحاورون هم من اشتات الامم الغربية المعاصرة .

ولا يحسب احد من قارئاتي الفضليات وقرائي الاعزة في (الاديب) الاغر ان العربي ليس بين هؤلاء المحاورين فانه مناط الحوار ومداره في كل صفحة من صفحات الكتاب .

وقد اتقن الحوار الى حد عجاب صديقنا القاص العظيم توفيق الحكيم واقره على ابتكاره في الادب العربي الحديث عميد الادب المعاصر استاذنا الدكتور طه حسين مد الله بعمره ، لكني رحت اخالف استاذنا في اضافة الابتكار الى الاستاذ الحكيم في فن الحوار ، فان الشاعر المشهور ولي الدين يكن سبق الى هذا الفن وأريك المثال من كتابه الصحائف السود في المشهد الذي عنوانه (فصل من فصول الرواية : « هو وهي ») فانه قطعة من قصة بين عبد الحميد السلطان الاحمر ـ كما يسميه ولي الدين ـ وبين زوجة من زوجاته كان قد جعل قصره على البوسفور سجنا لها حتى حاولت احراق القصر عليه فسقاها السم بالطريقة التي شرب بها السم سقراط .

وكان الجاحظ صاحب حوار دائم ، والقرآن الكريم مليء بالحوار وتجاذب الاحاديث ، لكن قصة طويلة بكاملها تقوم على التحاور لامر جميل عرف عند الحكيم وعبد الحميد السحار وسواهما منقصاصي العصر واخذ هذا الاثر الجديد لدى الاستاذ « جاد الحق » يقوم ببراعة عليه ، وكيف تم الامر بين الحقيقة والخيال في قصة المصير ، فان الاستاذ يوسف يكمل اسمه بلقب « جاد الحق » وها هو يجود بالحق والصدق بروايته هذه الجديدة فيفتح فيها فتحا فنيا يجيزه اليوم المثال وتدلف اليه الحقيقة المعاصرة ، ومن يدري فربما حق في المستقبل فيقول رجل مترف لامرأة مترفة :

ـ اتسهرين الليلة في القمر ام على سطح المريخ .

ـ انني اوثر المريخ الذي يلمع باشعته الحمراء فربما كانت الليلة رواية هنالك في الطاحونة الحمراء تشبه ما كنا نشاهده على الارض بمونمارتر بباريس بمرقص الطاحونة الحمراء .

دمشق — **زكي المحاسني**

عبد الوهاب عزام في حياته ، وآثاره الادبية

محاضرات الدكتور زكي المحاسني ـ ١٤٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية ـ مطبعة النهضة الجديدة ، بالقاهرة ١٩٦٨

عبد الوهاب عزام (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) رائد طليعي من رواد العروبة ، والثقافة العربية ، والادب العربي ، اخلص لها الاخلاص الامين ، وخدمها الخدمات الكبرى طيلة سني حياته ، فملأ بذلك فراغا في النفوس ، او في الفترة الزمنية التي تسلسلت فيها حياته وانجازاته .. وهي فترة شاقة على العرب ، عانوا فيها صلف المستعمرين المحتلين من اتراك ، وانكليز ، وفرنسيين ، ثم غزاة صهاينة ، وادرك في اواخرها فترة التحرر العربي الحديث ، والوحدة العربية الحديثة ، ورأى بعينه جلاء الجيوش المستعمرة عن الوطن العربي ، وثورات التحرر ، والوحدة وخاصة ثورة تموز المصرية ، عام ١٩٥٢ ، فهلل لها ، وعمل جهده في صفها ..

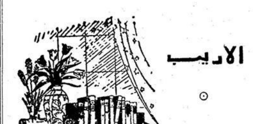
لقد كان عبد الوهاب عزام طيلة هذه التجارب التي مرت بها البلاد العربية مثال المخلص لعروبته ، وبني قومه العرب ، تراثهم ، وثقافتهم، خاصة ان دراسته ، وعلومه الجامعية اسعفته بالتعمق في اللغات الشرقية ، الفارسية ، والتركية ، والاوردية ، فانصرف للترجمة عنها ، والتحقيق فيها لاغناء تراثه العربي ، ومده بقبسات من شرقيته ، واسلاميته .. وقد تميز في ذلك بروحانية عملية آثرت الدين ، والاخلاق ، فكان مثال العربي الداعي الى الكفاح ، والتقوى ، والفضيلة والمنعة ، تشع روحانيته الشرقية ، العربية هديا ، ونضالا ، وعزيمة ، وشكيمة ، وكم كنا نجد في كتاباته الركيزة الهادية لتطلعنا العربي وسط تيارات الشعوبية ، والاستعمار في الوطن العربي ، كما نجد فيه الرائد المخلص الصادق الى حيث كرامتنا ، ووحدتنا ، واصالتنا ..

وقد احسن الاديب العربي الكبير ، والكاتب المحقق الضليع ، الدكتور زكي المحاسني في تخصيص موضوع محاضراته هذا العام في « معهد البحوث والدراسات العربية » ، التابع لجامعة الدول العربية ، بهذا الرائد الطليعي العربي ، الفذ والخالد : عبد الوهاب عزام ... وقد سبق للدكتور زكي المحاسني ان حاضر في المعهد المذكور عن الكاتب ، والمحقق احمد امين ، ونشر محاضراته ايضا في كتاب قيم ، ولكن القول في عبد الوهاب عزام مختلف عنه في احمد امين ..

وذلك ان احمد امين كاتب اجتماعي ، ومؤرخ للفكر ، والثقافة ، في حين عبد الوهاب عزام شخصية علمية ، وادبية ، وادارية ، ودبلوماسية ، نظم الاشعار ، ونشر المقالات والخواطر ، وترجم شعرا لاثار شعرية فارسية واوردية مجيدة ، وحقق كتبا ، ودواوين ، وتراجم، وتسنم مناصب في التعليم الجامعي في مصر ، والعراق والسعودية ، او مناصب دبلوماسية في السعودية ، والباكستان .. يراجع في ذلك على الخصوص في المؤلف ص ١٣٥ ـ ١٤٤ ، حيث تسلسل الوقائع عن حياته ، ومؤلفاته ، وتراجمه ، ووظائفه ..

وفي الحقيقة لقد توفق الدكتور زكي المحاسني في محاضراته ، والتي ضمنها مؤلفه الجديد ، والشيق ، والممتاز عن عبد الوهاب عزام ، اذ وفاه حقه في تلك النواحي ، فعرف به في شتى مجالات نشاطاته ، ولم يمنعه المامه البسيط ببعض اللغات الشرقية كالفارسية مثلا من ان يعرف بشتى ترجمات عزام عن الفارسية ، والتركية والاوردية ، او يعلق عليها بذوق ، وصدق .. ذلك ان الدكتور زكي المحاسني يعتبر نفسه بالفعل مريدا ، وتلميذا لعزام ، اذ كان اختاره ليشرف على رسالتيه الجامعيتين للدكتوراه من الجامعة المصرية : « المعري ناقد المجتمع » و « شعر الحرب عند العرب » ، وكلا الكتابين للمحاسني مطبوع .. وعندما يكتب مريد امين مخلص عن استاذه ، لا

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

غرو ان يصدق القول ، ويصيب الحقائق ، ويمس القلوب والافئدة .

استمع الى زكي المحاسني الكاتب المحقق ، يقول بدقته العلمية في عبد الوهاب عزام الدارس ، والموجه : « .. على ان عزاما في تدريسه وتوجيهه لم يكن ذا خطة محددة ، او مذهب معين في البحث والتاليف الا ما كان يقتضي المنطق ويلائم الموضوع .. بل كان يطبق على نفسه وغيره ما يراه البحث العلمي صوابا ، دون الحاح على حرفية الدراسة المنهجية حتى يضيع الباحث في خطوطها دون ان يهتدي الى مراده في نصوصها » ص ١٦ .

واستمع اليه يقول في عبد الوهاب عزام الصوفي : « .. انه لم يكن صوفيا ، بالمعنى الشيخي والعبادي الذائب ، والمذهبية في التصوف ، بل كان متصوفا في تقواه ، غير زاهد في الحياة ، ولا متخفف من تكاليفها » .. ص ٣٧ ، ثم يحلل ادبه الصوفي ، واثر صوفيته في دراساته الجامعية الادبية ، والفكرية .

وفي حديث المحاسني عن نثر عزام ، وشعره ، يقول : « والنثر العزامي يتسم بالبلاغة والحفاظ على الجزالة في التعبير ، مما كان يتطلب ذوق المثقفين في عصره ، واما شعره فكان تقليديا ، غلب عليه النظم المحكم في اوزانه الخليلية وقوافيه .. واذا عدنا الى منظومه في ترجماته عن الفارسية وفي تاملاته الصوفية وجدنا عزاما فياض القريحة فيما استلهم من الحياة الواقعية .. »

وفي حديثه عن كتاب : محمد اقبال ، لعزام ، يقول : « وخلاصة الخلاصة في فلسفة اقبال انها (تربية الشخصية) وتوجيهها الى النفع الانساني والاسلامي » .. الخ ، ص ١٢٣ . وفي مؤلف المحاسني فصل عن بيام مشرق لاقبال ، وهو ديوان شعر عارض به اقبال ديوان الديوان لغوته ، وترجمه عبد الوهاب عزام شعرا ايضا ، وهو شعر حضاري ، وغزلي رمزي ، ووصفي .. ص ١٢٨ وما بعدها .

وفي الختام تحيتنا للكاتب الاديب الدكتور زكي المحاسني على هذا المؤلف القيم الممتاز عن عبد الوهاب عزام ، وشكرا له على الخدمات التي يسديها ، المرة تلو المرة ، للثقافة العربية ، والتراث العربي .

دمشق — عدنان بن ذريل

•

حسن العطار

تاليف محمد عبد الغني حسن – (؟) صفحة – طبع ونشر دار الكاتب العربي بالقاهرة

قليلون هم الذين يتبوأون مركز الصدارة في العالم العربي ، ويتصدون لكتابة السير ، وقليلون هم كذلك الذين يمزجون السير بالتاريخ ، ويخرجون من هذا المزج بهذه الدراسات القيمة ، وبخاصة حيال اولئك الذين تناثرت اخبارهم ، وذهبت معالم آثارهم ، بفعل الزمن تارة ، او التجاهل والنسيان تارات أخرى .

والشيخ العطار ، يعد من اولئك الذين تناساهم التاريخ ، وأهملهم البحاث ، وان اثبتت عنه خلاصات غير وافية في بعض الكتب او الدوريات :

لذلك كان البحث عنه شاقا ، والتعرض له شائكا ، والتناول لسيرته ، لما يصعب ، اذا قدر الباحث ، انه امام شخصية لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية ، والعقلية ، بل وأثرت كذلك في العصر الذي عاشت فيه ، والعصور التي تلته .

فحسن العطار الذي ولد في اول الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ، يعطينا بمولده ، صورة لمصر السياسية في القرن الذي كان نهاية لحكم الولاة العثمانيين في مصر ، بما فيه من تيارات مضادة ، وثقافات ضحلة .

ويصور لنا الجبرتي كما يقول المؤلف ، الحالة الاجتماعية التي كانت قبل مولد العطار ، ويضع اسرة الشيخ حسن في موضع البعد عن التيار الذي كان يلاحق الفلاحين وأصحاب الحرف في ذلك الزمان ، وان كان العطار نفسه قد شاهد بوعيه – نظام ملكية الارض التي كان قدر قليل منها في يد الفلاحين .

« اما ارباب الصناعات في المجتمع المصري ، فكانوا – على مهارتهم في بعض الصناعات – على حال من الضنك بما يفرضه الحكام عليهم دائما من الاتاوات والغرامات التي كان يجمعها « شيخ الطائفة » ويوردها الى الحكومة » .

وليس أصدق من هذه الصورة التي اعطانا اياها الاستاذ محمد عبد الغني حسن واصفا بها مصر في القرن الثامن عشر ، وهو القرن الذي ولد فيه حسن العطار من : « حيث التخلف العقلي ، والتاخر الفكري الذي ظهر في البلاد بصورة واضحة » .

والمساق الذي ساقه المؤلف دالا به على هذا التخلف ، لمايدخل في باب الحقيقة ، ولا يعدو ان يكون في باب المكرور المعاد :

فالذي يقرأ :

يا دهر مالك بالمكاره تجتري … ولفقد أرباب المكارم تحتري

لا يستغرب ان يقرأ كذلك :

الله يعلم ما يكون ، وما به … تسري الرياح ، وماله يجري الفلك
فدع النجم في ضلالته وما … ينبيك عنه ففي مقالته افك

ولكن هل كان العطار كذلك ...؟

يقول المؤلف : « امتاز العطار بقراءاته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة في زمانه . ولم يختص بعلم معين ، او بفن بذاته من الفنون ، ولكنه كان حريصا على الافادة من كل علم ، وكان يطرز الكتب التي يقرؤها بهوامشه وتعليقاته » .

ويرجع الاستاذ عبد الغني حسن هذه الطفرة التي طفرها حسن العطار في حياته العلمية والادبية ، والتي بعد بها عن مواضعات العصر ، ونأى بنفسه عن ان يكون طبعة ثانية لزملائه الذين سبقوه في ميادين العلم والادب ، بتلك الحصيلة الواسعة من المعارف البشرية في عصره . « فان شيوخه واساتذته في الازهر ، لم يعطوه من المعارف وثراء الفكر ، قدر ما أعطته الكتب الكثيرة التي قرأها وعلق عليها ، واعاد قراءتها » .

على ان العطار : « لم يكتف بالكتب العربية ، بل اتجه الى الكتب التي ترجمت في اوائل عصر النهضة في القرن التاسع عشر ، فقرأها ، وافاد منها ، وجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب » ..

ويزيح المؤلف الستار عن تلك الصداقة التي ربطت بين عبد الرحمن الجبرتي ، واسماعيل الخشاب ، وحسن العطار ، ويذكر ما كان فيها من نوادر ، وما وقع بين الثلاثة من مطارحات هي الثروة ان عز الثراء ..

ولم يفت الاستاذ عبد الغني ان يعقد فصولا في هذا الكتاب ، يعرض فيها للعطار بين مادحيه وهم قلة اذا عرفنا ان عصر العطار ، كاد يكون فقيرا في هذا الباب ، خلا النظامين الذين لم تصل الينا أشعارهم ، او ما صنعوه من نظم ، او سبكوه من الفاظ ..

غير ان الاثبات هنا من باب الوفاء لشاعر ظل حياته مخلصا لاستاذه العطار يغنينا عن سياق ادلة لما كان عليه العطار من احترام بين تلاميذه ومحبيه . فالشاعر : محمد شهاب الدين الذي حاول ان يكون الشاعر الرسمي للدولة في عهده ، يقول على طريقته التقليدية :

« حسن » الذات والصفات جميعا … مغضب المبغضين، مرضي الخصوم
هو « عطارنا » الذي من شذاه … كان عطر الهدى ذكي الشميم !

ولا يجمل بنا ان نمر بالعطار في تقدير الرجال ، دون ان يكون

مؤلف هذا الكتاب في مقدمة من كان لهم فضل في التأريخ لـه بهذه الفصول الممتعة ، فما نعرف ان احدا كتب عن العطار دراسة مستفيضة ، او تناوله في كتاب ، اللهم الا بعض فصول جاءت للتعريف به ، أو دراسة عرضا في كتاب ، او اشارة في مقام استشهاد لعصره ، في أي ناحية من نواحيه ، أو حادثة من حوادثه ..

ومن باب اسناد الفضل لذويه ، يذكر الاستاذ عبد الغني رأي الجبرتي ، ومصطفى بكري الساعاتي ، ورفاعة الطهطاوي ، وعبد الرزاق البيطار ، وفيليب طرازي ، وطه حسين ، ومحب الدين الخطيب ، وعبد الرحمن الرافعي ، وغير هؤلاء من الذين عرفوا فضل الرجل ، وسعدوا بلقائه في كتبه ، او شافهوه ، او قعدوا تلاميذ يأخذون عنه، ويفيدون منه .

ولكن هل كان العطار شاعرا له مكانته في عصره ، حتى يعقد لـه المؤلف فصلا من فصول هذا الكتاب ؟

يدافع الاستاذ عبد الغني عن شاعرية العطار فيقول :

« اجمع الذين ترجموا للعطار ، او تناولوه بشيء من الدراسة والتعريف ، على انه كان شاعرا . ولا بد ان نضع الرجل في مكانه الصحيح من شعر ذلك العصر الذي عاش فيه . فلو اننا قسناه بمعايير زماننا وما طرا عليها من تجديد في النظر الى الشعر لظلمنا الرجل ظلما بينا » .

ولقد اثبت المؤلف عدة أبيات في أغراض مختلفة ، تدليلا على قوله ، وحجة في الوقت نفسه على الذين جردوا العطار من هذا الفن.

قال العطار في رثاء شيخه : محمد عرفة الدسوقي :

أحاديث دهر قد ألم فأوجعا	وحل بنادي جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة	فلم يخل من وقع المصيبة موضعا

وقال يصف بركة الازبكية :

بالازبكية طابت لي مسرات	ولذ لي من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة	كأنها الزهر تحويها السموات

وكما كان للعطار شعر ، كان له نثر ، لا على طريقة عصره باستعمال السجع ، ومحسنات البديع ، والحلى اللفظية ، وانما كان : « بحكم تنوره ، وصفاء ذهنه ، وكثرة رحلاته وجولاته ، واتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتب الغربيين المترجمة ، استطاع ان يتحرر من كثير من الاصفاد التي كانت تكبل الاقلام في ذلك الزمان ، واستطاع ان يوازن باعتدال بين طرائق التعبير التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، واستطاع ان ينزل الكلام منازله ، رعاية لمقتضيات الاحوال » .

والعطار الذي طبقت شهرته عصره في العلوم الشرعية والشعر والكتابة ، استطاع ان يضيف الى هذه الحصيلة حصيلة أخرى ، ليست بالغريبة على مشايخ ذلك العصر ، هي اشتغاله بعلوم الفلك التي تمكن منها وتعمق فيها ، وعجم آلاتها ، حتى كان التطبيق الذي عم انحاء الارض بحل الازياج وتحويل السنين ، ومظنات الكسوف والخسوف ، واستخراج اوقاتها وساعاتها ودقائقها ، مع الضبط والتحوير ، وصحة الحدس .

وفي الفصلين اللذين عقدهما المؤلف عن العطار الاديب ، والعطار المنبه لحركة الاصلاح ، لما يشهدان لـه بحسن الترتيب والتبويب . فالعطار الذي رأى ان الادب ليس من علوم البطالة وموضوعات الفراغ، ولكنه ضرورة لترقيق النفس ، وارهاف الحس ، وسلامة الذوق ، وصحة الحكم ، كان من الضروري له ان يجرؤ على تعديل برامج التعليم في الازهر ، ويدخل بعض المواد الحديثة فيه ، ويفتح بيته لرفاعة الطهطاوي ليتلقى عنه دروسا في الادب والتاريخ والجغرافية .

يقول الاستاذ عبد الغني : « الحق ان العطار كان موجها الى الدراسات الادبية بايحاءاته الى تلميذه محمد عياد الطنطاوي المدرس بالازهر اولا ، وبدروسه في الانشاء والكتابة الادبية ثانيا ، وبالروح العامة التي خلعها على مجالس الادب في اوائل القرن الماضي ثالثا ».

ولقد حلل المؤلف دوافع العطار الى الاصلاح ، والتقدم العلمي الذي كان يقصده بعد ان ذكر تلاميذه ، وأثبت اشياخه واساتذته ، وجمعه بين التدريس في الجامع الازهر ، وتولى مشيخته ، فضلا عن تلك المراسلات والتحرير في : « الوقائع المصرية » وغير هذا من الجلوس في حلقات العلم ، والمكاتبات الادبية الجديدة . ثم وقف طويلا امام منهجه في التأليف ، وشرح ميله الى النظرة الموسوعية في مصنفاته ، ودقته التي جاءته من عقليته المنطقية المنظمة التي ظهرت في اهتماماته بشروحه على كتب المنطق وحواشيه عليها .

أما الاجازات العلمية ، وتقاريظ الكتب ، فقد كان لهما في هذه السيرة ، وقفة شرح وتوضيح من المؤلف ، وبقدر ما كان لهذه الاجازات من مراسم وقواعد واصول بقدر ما كان لها من اثر في تشجيع الطلاب على طلب العلم والاقبال عليه ، وكذلك كانت التقاريظ التي انتهى عهدها ، وبطلت بدعتها في عصرنا الحديث .

على اننا لا نجد اوثق من المؤلف نفسه ، وهو يعدد اثاره ، ويحصي كتبه ، كما قال الاستاذ عبد الغني ، فان العطار نفسه ، قد أحصى اثاره ، وعد مؤلفاته ، وان عاب عليه المؤلف طريقته ، في الحصر ومسلكه في هذا التعداد اذ : « عيب هذه الطريقة ان المترجم له قد يكون سجل مؤلفاته قبل نهاية اجله بزمن طويل ، او قصير ، وهنا يكون سجل مؤلفاته ناقصا بقدر ما كتبه بعد ذلك من كتب ومصنفات » .

وقد دل مؤلف الكتاب على مختارات للعطار ، ليست هي كل ما له من منتخبات ، وان كان له الفضل في اختيار أحسنها ، واثبات أجودها : فالغزل ، والوصف والمدح والرثاء ، والتهنئة ، والهجاء ، والموشحات ، والشعر التعليمي ، هي الحصيلة المتعارفة للعطار في اكثر الكتب ، وهي المبثوثة هنا وهناك في اكثر من تاريخ ، وان كان تعب الاستاذ عبد الغني حسن في جمع هذا التراث ، كان يمكن ان يكون في سعة من الصفحات ، وفي عديد من الورقات ، لولا التقيد بهذا العدد المحدود ، او خوف الاطالة في هذه السيرة العطرة .

والذي يزيد من قيمة هذا الكتاب ، ان المؤلف الفاضل ، اثبت بجوار شعر العطار ، ولاحقا له ، ما قاله نثرا في : الوصف ، والرسائل الاخوانية ، وتقريظ الكتب ، والاجازات العلمية ، ونماذج لكتابة الشروط والصكوك ، ومقدمات لحواشيه ..

ومن نافلة الكلام أن أدل على هذه الابواب التي تناولها المؤلف في هذا الكتاب ، وعانى فيها من الجهد ما لا يقوى عليه غيره بما توافر لديه من المراجع والصبر والتزود بمختلف العلوم والفنون ..

القاهرة

ابو طالب زيان

ظهر حديثا

● ديوان كمال نصرت ـ كمال نصرت ـ تقديم ابراهيم الوائلي الاستاذ بكلية الاداب ببغداد ـ ٣٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة دار البصري ببغداد .

● الموت واللغة ـ مجموعة شعرية ـ الاب يوسف سعيد ـ ٩٦ صفحة ـ مطبعة الامان بدرعون حريصا في لبنان .

● اشعار في المنفى ـ مجموعة شعرية ـ عبد الوهاب البياتي ـ الغلاف والرسوم لسليمان شلبي ـ ٧٢ صفحة ـ الطبعة الرابعة ـ منشورات دار الكاتب العربي بالقاهرة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● تاريخ السينما في العالم ـ تاليف جورج سادول ـ مع مقدمة من المؤلف خاصة بالطبعة العربية ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني وفايز كم نقش ـ ٥٩٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .

● جبيل وبلادها في التاريخ ـ تأليف فوزي سابا ـ ٢١٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات صدى الارز ـ المطبعة التعاونية اللبنانية في درعون بلبنان .

● عبد الوهاب عزام في حياته واثاره الادبية ـ محاضرات القاها الدكتور زكي المحاسني على طلبة قسم البحوث والدراسات الادبية واللغوية ـ ١٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ـ مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة .

● ابطال وامجاد : سجل في تاريخ حمص الثوري عام ١٩٢٥ ـ تاليف عدنان الداعوق ـ صمم الغلاف شريح طياره ـ ١٧٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الاندلس بحمص .

● مشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام ـ تاليف يُوسف القرضاوي ـ ١٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الاقصى في عمان ودار العربية في بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الحضارة الاسلامية اسسها ومبادؤها ـ تاليف ابو الاعلى المودودي ـ ترجمة محمد عاصم الحداد ـ ٣٠٤ صفحة ـ منشورات دار العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● احكام المرتد في الشريعة الاسلامية ـ تاليف نعمان عبد الرزاق السامرائي معيد في كلية الشريعة ومحاضر في كلية الدراسات الاسلامية ببغداد ـ رسالة ماجستير ـ ٣٩٢ صفحة ـ ساعدت جامعة بغداد على طبعه ـ خصص المؤلف ريع الكتاب للنازحين الفلسطينيين ـ منشورات دار العربية ببيروت والمكتب الاسلامي للطباعة والنشر ببيروت ـ مطابع دار الهاشم ببيروت .

● الاحوال الشخصية في الشريعة الاسلامية ـ تقديم سوهام توفيق المصري ـ ١٥٦ صفحة ـ منشورات دار العربية ببيروت ـ مطابع شعاركو (؟) .

● قاضي القضاة عبد الجبار بن احمد الهمذاني ـ تالفيد الدكتور عبد الكريم عثمان ـ ٢٥٦ صفحة ـ منشورات دار العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ابن حزم الاندلسي حياته وادبه ـ تأليف الدكتور عبد الكريم خليفة ـ ٢٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الاقصى بعمان والمكتب الاسلامي ببيروت ودار العربية ببيروت ـ مطابع معتوق اخوان ببيروت .

● مبادىء البحث التربوي ـ تاليف فرح موسى الربضي وعلي مصطفى الشيخ ـ ٢٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الاقصى في عمان ودار العربية في بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● التدخين وسرطان الرئة والامراض الاخرى ـ تأليف الدكتور نبيل صبحي الطويل اخصائي بحفظ الصحة ـ ٩٦ صفحة ـ منشورات دار العربية ببيروت ـ مطابع معتوق اخوان ببيروت .

● اصفار على اليسار ـ رباعيات ـ عبد اللطيف الخشن ـ ٩٦ صفحة ـ طبع في بونس ايريس بالارجنتين .

● مع المسيح ـ تاليف بولس سلامة ـ ٢٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات الرسل ـ مطابع الكريم الحديثة في جونيه لبنان .

● غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ـ تاليف الشيخ ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي ـ لم يذكر اسم المحقق ـ ٤٠٨ صفحات ـ حجم كبير ـ دار منشورات البصري ـ مطبعة دار البصري ببغداد .

● الرقة كبرى المدن الفراتية القديمة ـ القسم الاول ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في سورية ـ ٨٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ٢ في سلسلة تاريخ المدن الفراتية القديمة في سورية ـ طبع في دير الزور سورية (ولم يذكر اسم المطبعة)

● موال في الغربة ـ مجموعة شعرية ـ عادل قره‌شولي ـ الغلاف والخطوط والرسوم للفنان ابراهيم هزيمة ـ ٧٦ صفحة ـ طبع في لايبزغ بالمانيا .

● قصر الفيوم واساطير اخرى ـ تاليف لورين الريحاني ـ ١٥٢ صفحة ـ مزين باللوحات الفنية ـ حجم كبير ـ منشورات دار الريحاني ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● نوافذ ادبية : مجموعة من نظرات في الادب العربي وبعض ادبائه ـ تاليف نسيم نصر ـ ١٥٢ صفحة ـ مطبعة دار الكتب ببيروت .

● نظير زيتون .. الانسان ـ جمعه وقدم له عدنان الداعوق ـ اشرف على طبعه عبد المعين الملوحي ـ ١٩٢ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بدمشق ـ مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بدمشق .

● الالتزام بالحرية والتقدم ـ الذكرى السنوية الخامسة لتاسيس ندوة الدراسات الانمائية ـ ٩٦ صفحة ـ منشورات ندوة الدراسات الانمائية ببيروت ـ طبع في بيروت (لم يذكر اسم المطبعة) .

● Israël et le Refus Arabe : 75 ans d'Histoire — par Maxime Rodinson - 254 pages - Editions du Seuil, Paris Imprimerie Bussière à Saint - Armand, France.

● Poème de la Grande Invention — par Georges Linze — 80 pages — Editions Anthologie, Liège, Belgique.

● Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840 - 1861 — by M. Ma'oz — 268 pages — Oxford University Press — Printed at the University Press, Oxford, Great Britain.

● Grammaire de l'Arabe — par Gérard Lecomte — 128 pages — Collection «Que Sais-Je?» — Presses Universitaires de France, Paris — Imprimerie des Presses Universitaires de France.